الباب الأول

سيرة الأميرة ذات الهمّـة

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

ملخص السيرة

فى عهد الخليفة عبد الملك بن مروان ذاع صيت الحارث الكلابى بوصفه زعيما لأسرة بنى كلاب، كما ذاع صيت مروان بن الهيثم بوصفه زعيما لأسرة بنى سليم. ولما مات الحارث فرح العرب بموته لأنه كثيرا ما كان يزعجها بغاراته. أما زوجته التى كانت على وشك ولادة طفلها، فقد قررت أن تهرب خوفا من أن ينتقم أعداء زوجها منها أو من طفلها. فخرجت تحت جنح الليل مصطحبة معها خادمها سلام الذى كانت تثق فى إخلاصه وأمانته. ولكن ما أن خلا بهما الطريق حتى أراد بها الخادم سوءا فدافعت المرأة عن نفسها دفاعا أدى إلى ولادة طفلها وإلى وفاتها فى الوقت نفسه. وقبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة، طلبت من خادمها أن يرعى طفلها وأن يعلق فى صدره تميمة أعطتها إياه. وأما الخادم فقد ولى وحده هاربا حينما رأى الأم مضرجة فى دمائها وبجانبها طفلها يصرخ..

وفى هذا الوقت خرج الأمير دارم يطلب الفرجة لنفسه من هم يقلقه. وقاده الطريق إلى المرأة المضرجة فى دمائها وبجانبها طفلها يصرخ، فأشفق على الطفل وأخذه ليربيه عوضا عن ابنه الذى كان قد توفى منذ زمن قريب، وأطلق عليه اسم ابنه وهو جندبة. وسرعان ما شب جندبة عن الطوق

وظهرت عليه أمارات البطولة التى ورثها عن أبيه، الأمر الذى آثار القلق فى نفس الأمير درام، إذ خشى أن يبزه. فلم يستطع بعد ذلك أن يكتمه العداء. ولما اتسعت هوة الخلاف بينهما، أطلع الأمير دارم جندبة على حقيقة نسبه، تلك التى كان قد عرفها من قبل عن طريق التميمة التى وجدها معلقة بصدر جندبة وهو طفل. وسعد جندبة لسماع هذا الخبر، وهب من فوره ليرحل إلى قومه بنى كلاب حتى يقف بينهم بطلا محاربا بين صفوفهم. وكانت مهمة جندبة تنحصر فى الدفاع عن قبيلته ضد القبائل المعادية لها وبخاصة قبيلة بنى سليم التى كانت تسعى إلى تصدر الزعامة بين القبائل العربية بدلا من أسرة بنى كلاب. ولكن الأيام لم تهمل جندبة فى تحقيق آماله فى عالم البطولة، فتوفى تاركا أخاه عطافا ليقوم بدوره فى زعامة قبيلته. ولم يمض على وفاة جندبة وقت طويل حتى ولدت له زوجته ولدا سمى الصحصاح. وفى الوقت نفسه ولدت لعطاف ابنة سماها ليلى. وتربى الصحصاح وليلى فى بيت واحد. فلما كبرا وقد أحب كل منهما الآخر، تقدم الصحصاح إلى عمه عطاف طالبا منه أن يزوجه ابنته. ولكن عطافا الذى كان يكن الكره للصحصاح، وضع العقبات فى سبيل إتمام هذا الزواج، فلم يكن يتحتم على الصحصاح أن يقدم مهرا بالغا فحسب، وإنما تحتم عليه كذلك أن يحضر له مزنة، فرسة أخيه جندبة المشهورة والتى كان الغطريف الجبار أخذها منه عنوة بعد أن قتل جندبة غدرا. ولم يضعف هذا من عزم الصحصاح، فقرر القيام بمغامرات بطولية فى سبيل تحقيق هذه التبعات الشاقة. فخلص مزنة وغنم أموالا طائلة. ولم يتسبب فى تأخيره عن الرجوع إلى ليلى سوى ما كان يفرضه عليه الواجب من القيام بأعمال إنسانية؛ فمن ذلك ما بلغه ـ فى أثناء مغامراته ـ من أن مروة ابنة الخليفة

يحدق بها الخطر من جراء هجوم الأعراب عليها وهى فى طريقها إلى بيتها بعد تأدية فريضة الحج. وسرعان ما نسى الصحصاح أغراضه الشخصية وأسرع إلى إنقاذ مروة. فلما نصحه عبده نجاح بألا يقدم على ذلك خوفا عليه قال له: «لقد سلوت حب ليلى باصطناع المعروف وإغاثة الملهوف ولابد أن ألقى روحى على هذه الكتيبة وأكشف إن شاء الله هذه المصيبة»[1]. فلما ألح العبد نجاح فى قوله أنبه الصحصاح وقال له: «يا ابن اللئام ما يقعد عن نصرة الحريم إلا كل لئيم ثم صاح من أم رأسه: يا أنذال البادية والطاغية العادية، أقسم بمن جعل البيت الحرام حمى للناس، وأمنا من البأس، وأوضح منهجه وأفرض حجه، لئن لم تخلوا عن الحريم وما معهم من المال لأجعلن رقابكم بلا معاصم، وأجسامكم بلا جماجم». ثم خلص مروة من مأزقها واصطحبها إلى بيت والدها حتى لا تتعرض لخطر آخر. وشكر الخليفة للصحصاح مروءته وطلب منه أن يفصح عن رغبته. ولما لم يكن للصحصاح من رغبة أخرى سوى أن يجعل الخليفة الزعامة لبنى كلاب على سائر القبائل الأخرى، فقد حقق له الخليفة هذه الرغبة عن طيب خاطر[2].

ثم استعد الصحصاح للرحيل إلى ليلى محملا بالهدايا من قبل الخليفة. ولكنه لم يكد يفعل ذلك حتى استوقفه الخليفة وطلب منه أن يصطحب أخاه مسلمة بن عبد الملك قائد الجيش العربى، فى معاركه ضد الروم.

---

(١) سيرة الأميرة ذات الهمة وولدها عبد الوهاب (ط. عبد الحميد حنفى) جـ ٢ ص ٣٢.

(٢) السيرة جـ ٢ ص ٣٢، ٣٣.

ونفذ الصحصاح ما أمر به واستطاع بمصاحبة مسلمة أن يقضى على جيش الروم بقيادة مقلاعوس، وأمانوس عند ديار بكر. وسعد الخليفة بهذه الأنباء، الأمر الذى دفعه إلى أن يأمر مسلمة والصحصاح باستئناف السير إلى القسطنطينية والعمل على إسقاطها فى أيدى المسلمين. ولكن المدينة الحصينة لم تسقط بل وقفت صامدة فى إصرار. ولما طال زمن حصار المسلمين لها، ابتنى المسلمون مدينة مواجهة لها وأطلقوا عليها اسم المستجدة. ولما بلغ الضيق من الروم مبلغه نتيجة هذا الحصار، فقد قرروا أن يستخدموا الحيلة التى ربما أرغمت المسلمين على الرجوع. فقد اقترح أحد أبطالهم وكان داهية أن يوضع فى صندوق مقفل تحمله قافلة من الروم تتزيى بزى الأعراب، وتسير به حتى تصل إلى جيش المسلمين. وهناك تدعى القافلة أنها عثرت على هذا الرجل المسكين تعذبه جموع الرهبان لأنه يعترف بدين محمد فاختطفته سرا ووضعته فى هذا الصندوق حتى لا يكتشف أمره[1]. وتمت الحيلة على المسلمين. ولما ركنوا إلى الرجل الداهية، أعمل هو ورجاله القتل فى جيش المسلمين. ومع ذلك فقد ظل الجيش الإسلامى مستقرا فى مدينة المستجدة حتى وقع الملك ليون مع الخليفة اتفاقية الهدنة بوقف القتال..

فى هذه الأثناء كان الصحصاح قد تزوج بليلى وأنجب منها ولدين. وقبل ولادتهما رأى فى منامه أنه سيرزق بولدين أحدهما وراء الآخر، وأن الابن الأكبر سوف يوقع الظلم بأخيه الأصغر. فلما ولد له الولدان سمى الأكبر وفقا للنبوءة ظالما والآخر مظلوما. وتحققت النبوءة بالفعل، ووقع

(١) جـ ٤ ص ٣٤، ٣٥.

الابن الأصغر تحت وطأة ظلم أخيه حتى اضطر مظلوم أن يلجأ إلى قبيلته لتحكم بينه وبين أخيه. وحكمت القبيلة بأن تكون الزعامة قسما بين الابنين وبين أبنائهما من بعدهما إن كانا ذكرين[1].

وولد لظالم ولد سماه الحارث. أما مظلوم فقد رزق بابنة سماها فاطمة. ولما خشى مظلوم من شماتة أخيه الذى ناصرته الظروف فى ظلمه، قرر أن يخفى ابنته لدى مرضعة تقوم بتربيتها. وسرعان ما كبرت فاطمة وظهرت عليها امارات البطولة النادرة إلى درجة أن أطلق الناس عليها ذات الهمة. ثم مرت الأحداث[2] وبلغ إلى علم ذات الهمة حقيقة نسبها. فعزمت على أن تنتقم من عمها ظالم الذى كان سببا فى إبعادها عن قبيلتها. فلما شاء ابن عمها الحارث بن ظالم أن يتزوج بها، إذ كان يحبها حقا، وجدت ذات الهمة ذلك فرصة سانحة لكى تنتقم منه ومن أبيه معا. فأعلنت رفضها الزواج من بن عمها، بل إنها أعلنت أنها لن تتزوج قط حتى لا يطمع فيها رجل آخر. ولكن الحارث الذى كان قد اشتد به الوجد، استطاع بمعاونة أفراد قبيلته أن يعقد قرانه على ذات الهمة. ومع ذلك فقد عزمت ذات الهمة ألا تهيىء له فرصة الدخول بها. فاضطر الحارث إزاء هذا الإصرار أن يدبر خدعة تمكنه من الدخول بها، فقد تمكن من أن يسبقها البنج وأن يدخل بها بعد أن أفقدها وعيها، على أن هذا لم يقلع ذات الهمة عن عزمها وهو رفض عشرة ابن عمها. وعلى الرغم من أنها كانت قد حملت منه، إلا أن هذا لم يتمثل لها عائقا فى سبيل هجره. فانتظرت حتى ولدت ابنها عبد الوهاب واستعدت لأن تنزح به إلى منطقة الثغور حيث كان الجهاد

---

(١) جـ ص ٧، ١١.

(٢) السيرة: الجزء السادس.

على أشده بين العرب والروم. على أن ابن عمها لم يتركها ترحل دون أن يصوب إليها آخر سهم من سهامه؛ فقد أشاع أن الولد الذى ولدته ذات الهمة لا ينتسب إليه، واستند فى ذلك إلى أن لون الطفل كان أسود مخالفا فى ذلك لون أمه ولون أبيه. عندئذ أرجأت ذات الهمة سفرها حتى تدفع عن نفسها هذه التهمة. وقد تكبدت ذات الهمة فى سبيل ذلك أقسى المشقات، إذ لعبت النوازع البشرية فى ذلك دورا كبيرا؛ فمن راغب فى الزواج منها ويود لو طلقت ولذلك فهو يسعى فى تبرئتها. وآخر يقبل الرشوة من الحارث ويسعى إلى إدانتها، ومع ذلك فقد انتصر الحق عن طريق هؤلاء الذين اشتهروا بالفراسة والعرافة. وبهذا أعلنت براءة ذات الهمة وأخذت تستعد لاستقبال مرحلة جديدة فى حياتها تتسم بالكفاح الخالص فى سبيل نصرة الدين الاسلامى والشعب العربى. وقد اختارت ذات الهمة منطقة الثغور لكى تكون موطنا لها لأنها المنطقة التى يتحدد فيها موقف الدين الإسلامى والشعب العربى. فإما أن تنصر الدولة الإسلامية على الروم ويكون ذلك تأكيدا لكيانها ودينها، وإما أن يحدث العكس فيتعرض حينئذ الدين الاسلامى والدولة الإسلامية إلى الانهيار. ومن ثم فقد انتقلت ذات الهمة على رأس الجيش العربى المتطوع والممثل فى قبيلة بنى كلاب إلى منطقة الثغور حيث اتخذت من ملطية عاصمة لها.

وفى هذه الأثناء انتقلت الخلافة من بنى أمية إلى بنى العباس. ولما تولى المنصور الحكم سعى بنو سليم يكيدون لبنى كلاب. ومنحهم المنصور أذنا صاغية؛ فأرسل إلى بنى كلاب كتابا يأمرهم فيه بالخضوع لسلطانه. وغضب بنو كلاب من الرسالة. وقال أحد شيوخهم وهو ظالم للنجاب:

«يا شيخ ما الذى كان بيننا وبين المنصور حتى أنه عزلنا عن الملك، وإنما كان أبونا محبا لبنى أمية. وقد هلك الجميع وصاروا فى القبور. فارجع إلى صاحبك وقل له عرب البر لا يدخلون تحت طاعتك. ومن جاء إلينا كانت سيوفنا إليه أقرب من كلامه.»[1] وقد كان هذا الرد خليقا بأن يخلق أزمة بين الحاكم وجيش الشعب لولا تدخل ذات الهمة بلباقتها وكياستها. فقد قالت لعمها على التو: «يا عماه لقد بالغت فى الخطأ، لما أن كان الأمر لبنى أمية كنت فى حقهم مليح، ولما أن رجع الأمر لأهله عدلت عن الصحيح. والصواب أن تنهض بقومك وتسير إليه (أى إلى الخليفة) وتعتذر فيما جرى منك، وتعرض نفسك عليه وعلى خدمته لأن لك فى ذلك الشرف»[2].

وبهذا مهدت ذات الهمة لعلاقة طيبة بين قبيلتها وبين خلفاء بنى العباس. كما أنها تمكنت من توحيد صفوف جيشها بعد أن قتل عمها ظالم وابنه الحارث فى المعارك العربية والرومية، وقد كان هذان يمثلان القوة المعارضة لها ولجيشها، إلى درجة أنهما انضما ـ كيدا لذات الهمة ـ إلى العرب المتنصرة الذين كانوا يعملون لغير صالح الدولة الإسلامية[3]. وهكذا استعدت ذات الهمة لتأدية رسالتها الكبرى وهى القضاء المبرم على القوة المتربصة بالدولة على حدودها الغربية.

وربما كان تحقيق هذا الأمر يسيرا على ذات الهمة وجيوشها، لو أن جيوش الأمة الإسلامية كلها، المتطوعة منها والتابعة للدولة، كانت متكاتفة

---

(١) سيرة الأميرة ذات الهمة وولدها عبد الوهاب: جـ ٦ ص ٥٥.

(٢) نفس المرجع. نفس الصفحة.

(٣) السيرة جـ ٧ ص ٥٦.

متحدة، ولكن الأمر لم يكن يخلو من نفاق وحقد كفيلين بأن يوقعا الانقسام بين صفوف المسلمين. وأما النفاق فكان يمثله عقبة السليمى. وتحكى السيرة أن أمه رأت رؤيا غريبة قبل ولادته. فلجأت إلى الحكماء لكى يفسروا لها الرؤيا: فقالوا لها: «يأتيكى ولد شرانى يلقى الفتن بين الناس من النساء والرجال. ويكون سفاك الدماء كثير الحيل والزنا مفسدا فى الدين عاصيا لرب العالمين»[1].

لقد كان عقبة قاضيا مسلما، أى أنه كان متفقها فى أمور الدين ومع ذلك فقد كان يعمل على هدم الدين الإسلامى وكيان الأمة الإسلامية عن طريق التواطؤ مع أعدائها. ولم يكن يفضح أمره سوى قبيلة بنى كلاب. ومع ذلك فإن الخلفاء كثيرا ما كانوا يتشككون فى ادعاءاتها ويرون أنها من قبيل الافتراء، حيث أن القاضى كان من ناحية يبدو تقيا ورعا للغاية، ومن ناحية أخرى كان ينتسب إلى قبيلة بنى سليم التى كان الخلفاء يرعون مصالحها خوفا من نفوذها. ولكن ذلك لم يضعف من عزم بنى كلاب فى محاربة عقبة. وقد كانت محاربته تقف جنبا إلى جنب مع محاربة الروم أعداء الدولة. ولولا الرؤيا التى رآها عبد الوهاب والتى تحدد موعد مقتل عقبة بيد الأبطال، لتخلصت أسرة بنى كلاب منه منذ زمن. فقد أخبر النبى عبد الوهاب فى رؤياه بأن صلب عقبة سيتم على باب الذهب، أحد أبواب مدينة القسطنطينية، وذلك بعد أن يتم النصر للمسلمين. «فلما سمع الأمير عبد الوهاب ذلك أصبح وأعاد المنام على جميع الناس، وأوصى كل من

---

(١) جـ ٧ ص ٨.

وقع به (أى بعقبة) لا يقتله حتى يصح المنام عن النبى (ﷺ)، لأنه قال عليه السلام: من رآنى فقد رآنى حقا، فإن الشيطان لا يتمثل بى»[1].

وقد كانت هذه البشرى أكبر دافع لجيش بنى كلاب على المجالدة والصبر على القتال. فإذا أضفنا إلى ذلك تخلص الجيش من ظلم وابنه الحارث، ومغنمه الكبير بانضمام البطل محمد البطال إلى صفوفه، يمكننا أن نقول أن الظروف أصبحت مهيئة للجيش الفدائى لخوض معركة النصر.

وقصة انضمام محمد البطال إلى صفوف المحاربين قصة غريبة؛ فقد ولد البطال كسولا وجبانا للغاية. «كان يفزع من الماء إذا سر ومن الثور إذا هر، وكلما زقزق الفأر فى الدار يهرب فى ثياب أمه.. ومن جملة كسله أنه إذا كان نصفه فى الظل والنصف الآخر فى الشمس وهو نائم، يكسل أن يزحف من الشمس إلى الظل»[2].

ولما ضاق أبوه به ذرعا كتبه فى ديوان المجاهدين. ولكن البطال كان يهرب بعيدا حتى لا يسمع دوى المدافع وصهيل الخيل. واستمر البطال على هذا الحال حتى حدثت المعجزة التى غيرت مجرى حياته. فبينما كان البطال جالسا وحده على ربوة بعيدا عن القتال، هوى سيف من السماء واندفع بقوة فى باطن الأرض. وأصيب البطال بفزع شديد حتى كاد يغمى عليه. فلما حاول أن يجتذب السيف، وجده قد اندفع فى بطن ثعبان مهول حتى قضى عليه. عندئذ وقف البطال متحيرا برهة وبعدها أفاق لنفسه وهتف قائلا: «الله أكبر، بان الحق وظهر، وزال والله الخوف والحذر فلا

(١) السيرة جـ ٢٦ ص ٤٠.

(٢) السيرة جـ ٨ ص ٤٥.

مفر من الموت ولا مهرب من الفوت.. ثم أنه فى ذلك الوقت هاجت به السريرة الخفية التى أودعها فيه رب البرية وعصفت فى رأسه نخوة العرب، ونزل من على تلك الرابية وجذب الحسام وحمل فى أوائل القوم»[1].

ولم يشأ البطال أن يحارب فى صفوف قبيلته بنى سليم، وإنما حارب فى صفوف بنى كلاب، إذ رآهم أكثر استبسالا فى سبيل الدفاع عن الدين الإسلامى والأمة الإسلامية.

على أن البطال لم يبرز فى القتال كما برزت فيه ذات الهمة وابنها عبد الوهاب، وإنما كان متفننا فى أساليب الحيل. وقد عبر عن ذلك فقال: «أنا ما صناعتى الحرب والطعن والضرب وإنما صناعتى فى الحيل والخداع فى حصن أو قلعة»[2].

وقد ساعد البطال فى حيلة عاملان، معرفته بلغة الروم أى اللغة اليونانية ثم مقدرته البارعة على التنكر فى أشكال عدة، بحيث أنه لم يكن من السهل على الروم ـ برغم حرصهم البالغ منه ـ أن يكتشفوا أمره. فاضطروا إلى تعليق صورته فى الكنائس والأديرة حتى تسهل معرفته وهو متنكر. وقد وصفه أحد رجال الروم فقال عنه: «هذا البلاء النازل، هذا الموت العاجل، هذا البلاء الكامل، هذا مفتت الأكباد الذى تذل من حيله ومكره الأسود، هذا الثعبان الأغبر، هذا الموت الأحمر الذى فى جميع الكنائس مصور»[3].

وليس فى وسعنا أن نعدد حيل البطال، ويكفى أن نقول أنه يعد المحرك

---

(١) السيرة جـ ٨ ص ٢.

(٢) السيرة جـ ١٠ ص ٤٥.

(٣) السيرة جـ ٤٥ ص ٣٦.

الأول لحوادث السيرة. فقد يتسلل داخل بلاد الروم متخفيا ويمكث بها زمنا يتيح له فرصة التعرف على من يكون عالما بخطط الحرب، ثم يصطنع معه كافة الحيل حتى يستمد منه بعض المعلومات وينقلها بدوره إلى العرب، فيتمكنون من رسم خططهم بناء على ذلك. وقد يسعى إلى تضليل الروم حتى تتم خطة جيشه بنجاح. فإذا تعذر على المسلمين فتح بلد حصين، أسرع البطال وتفنن فى حيلة حتى يعمل على إسقاط البلد. وهذا ما حدث فى واقعة عمورية. فقد وقف المسلمون أمام أسوارها المنيعة عاجزين عن دخولها. عندئذ أدرك البطال أن السيف وحده لن يمكن المسلمين من النصر، ولابد من الاستعانة بالحيلة.. وفيما هو يعمل فكره، أبصر أناسا يركبون الحمير المحملة بالخمور ـ ووجهتهم أبواب المدينة. ولم يشك البطال فى أن هذه الخمور مرسلة إلى الملك . فأسرع صوبهم. وأخبرهم باللغة اليونانية أن أبواب المدينة مغلقة لأن المسلمين يبغون دخولها. ثم أدعى أنه رسول مرسل من قبل الملك حتى يهديهم إلى الطريق الذى يوصلهم إلى داخل المدينة. ولم يشك الرجال فى صدق البطال فاتبعوه. فلما خلابهم الطريق، هم البطال بقتلهم وارتدى ثياب أحدهم، ثم امتطى صهوة حمار وأسرع حتى اقترب من أحد أبواب المدينة. وطلب من الحارس أن يفتح له لأنه جاء يحمل خمرا للملك من قبل صديقه فلان.. ولما كان الحارس قد أخبر بذلك، فتح له بابا سريا نفذ منه البطال إلى داخل المدينة. وقد كان هذا كافيا لأن يتعرف البطال على حيلة تمكن جيش المسلمين من دخول المدينة..

وبهذا نستطيع أن نقول أن القوة اكتملت لجيش بنى كلاب، فالقيادة

السليمة والقوة تمثلت فى ذات الهمة، والبطولة النادرة تمثلت فى ابنها عبد الوهاب، ثم أن المقدرة على اصطناع الحيلة بلغت قمتها عند البطال. فإذا أضفنا إلى هذا استبسال جميع أفراد الجيش وتفانيهم فى أداء واجبهم، أدركنا كيف أن عوامل النجاح كانت مهيئة لجيش الشعب العربى، الذى ترك دياره واستقر فى منطقة الدفاع عن الإسلام والأمة الإسلامية.

ولم يكن يعنى انشغال المحاربين بالحروب العربية الرومية، ابتعادهم عما يجرى داخل البلاد من حوادث. بل أن الأحوال الداخلية غير المستقرة كانت تشغل الجانب الأكبر من تفكيرهم. فتهديد العدو لحدود البلاد بصفة مستمرة كثيراً ما كان يقدم الفرص الذهبية للعناصر الفاسدة لكى تعيث فى البلاد فساداً. ومن بين هذه العناصر من كان يجهر بالعداء للدولة فيتزعم جيشا يحاربها به. وقد بلغ قوة هذه العناصر المعادية شأوا بعيدا إلى حد أن تستعين به الدولة البيزنطية وتتخذ منه وسيلة لتحقيق أغراضها. على أن خطورة هذه العناصر لم تصل إلى درجة خطورة العناصر الأخرى، تلك التى كانت تعمل فى الخفاء وتدير حركة التجسس لحساب الدولة البيزنطية ونعنى بذلك عقبة السليمى وعصابته. وقد رأى جيش بنى كلاب أن يحارب الطائفتين على حد السواء. فإذا تعاون معهم الخليفة كانوا أكبر عون له، وإلا فهم يستقلون برأيهم، وإن دفع ذلك الخليفة لأن يقف منهم مواقفا معاديا.

والحق أن ضعف الخلفاء من ناحية، وانعكافهم على ملذاتهم من ناحية أخرى، كانا يحولان دون توحيد صفوف الأمة الإسلامية حكومة وشعبا. وكلما كان الحاكم ضعيفا أو عاكفا على ملذاته، كثرت حوادث الثوار

الطامعين فى الحكم، وسعى إليه عقبة بالوقيعة ببنى كلاب. وقد كان الخليفة الأمين الذى حكى لنا التاريخ عن استهتاره وتبذله، نموذجا للحاكم الذى يعين على ضياع الحق وكلمة الصدق. وقد بلغ الهوس بالخليفة الأمين إلى درجة أنه اتهم هارون الرشيد فى أنه ينازعه حبه لامرأته الجميلة. ومن ثم فقد دب الخلاف بينهما غير عابئين بما يحدث فى بلادهما فى الداخل والخارج. فلما تولى الرشيد الحكم استغل عقبة فرصة دهاء الفضل ابن الربيع، واتفق معه على أن يعملا على إيغار صدر الخليفة من بنى كلاب وكل من تربطهم بهم علاقة طيبة. وقد نجحا فى مؤامراتهما وعزم الخليفة هارون الرشيد على القضاء على بنى كلاب.

.. ولما بلغ ذلك مسمع بنى كلاب، هم البطال بأن يقابل الدسيسة بدسيسة مثلها تطلع الرشيد على حقيقة الأمر. ففى ذلك الوقت التقى عبد الوهاب بولد له هو البطل سيف الحنيفية الذى ظل مختفيا عنه منذ ولادته حتى ألتقى به وهو بطل مرموق. وأما سبب هذا الاختفاء فهو أن عبد الوهاب كان قد تزوج بجارية رومية أعلنت إسلامها هى ميرونة، وحملت منه ميرونة وأسرت فى بلاد الروم بعد ذلك. ومنذ ذلك الحين اختفت عن زوجها عبد الوهاب. وعبثا حاول أن يعرف أخبارها، إلى درجة أنه لم يكن يساوره أدنى شك فى أنها قد قضت نحبها. أما ميرونة فقد ظلت فى الأسر مدة طويلة ولدت فى أثنائها ابنها الذى أخذ منها على الفور ليتربى فى حضن النصرانية، وأطلق عليه اسم سيف النصرانية. وكبر سيف وظل يحارب فى صفوف الروم إلى أن كشفت له الرؤيا عن حقيقة نسبه. فغادر بلاد الروم بحثا عن أبيه عبد الوهاب. فلما عثر عليه ارتمى بين أحضانه

وأعلن إسلامه بين يديه، وسمى منذ ذلك الحين «سيف الحنيفية». وبذلك كسب الإسلام درعاً جديداً لا يقل بطولة عن أبيه. ورأى عبد الوهاب ذلك فرصة سانحة لكسر شوكة الروم .. فطلب من ابنه أن يظل متظاهرا بالولاء إلى الروم وكان بطلا معروفا لديهم، وأن يعمل خفية على نصرة الإسلام. فدبر الاثنان خطة لخطف ملك الروم وبعض قواده حتى يحصلوا على دية كبيرة مقابل إطلاق سراحهم. ونجحت الخطة وأسر ملك الروم وقواده. وفى هذا الوقت علم البطال أن الخليفة قد دبر مؤامرته مع الفضل بن الربيع وعقبة للقضاء على جيش بنى كلاب فأسرع ودبر مؤامرته لخطف الخليفة وعقبة، ووضع كل منهما فى خباء مجاور للخباء الذى وضع فيه الملك الرومى. وأتم خطته بأن هيأ لعقبة مقابلة الملك الرومى، ثم أخرج الخليفة من خبائه ليستمع إلى حديث عقبة مع الملك الرومى. فإذا به يقسم له بالمسيح أنه لم يمكث فى بلاد الإسلام بعد اليوم، وأنه لن تقر له عين حتى يرى جيش الإسلام مدحوراً.. فلما أيقن الخليفة من نفاق عقبة، قبلت دية الملك وأطلق سراحه، أما عقبة فقد سيق إلى هارون الرشيد لمحاسبته.

ولم يسدل هذا الحادث الستار على علاقة الرشيد بعقبة، فقد استخدم الأخير كل وسائل المداهنة والمراوغة لكى يسترد ثقة الخليفة فيه. كما أنه لم يتردد على الروم زمنا حتى عادت علاقته بالخليفة إلى مجراها الطبيعى وأخذ الخليفة يصغى لبعض نصائحه..

ثم كانت نكبة البرامكة التى تمت على يد عقبة كذلك، حينما اكتشف علاقتهم الوطيدة ببنى كلاب. قال عقبة للرشيد ذا يوم: «أعلم

يا مولاى أن البرامكة جملتهم أربعة آلاف، وقد بايعوا الظافر ابن الرضا بخرسان وعولوا أن يسلموا إليه قصرك وأن يزوجوه بأهلك لأنه شكى إلى جعفر أن عنده للسيدة زبيدة هوى عظيم، وقد أجابه إلى ذلك. وجعفر ضامر على أنه يقلعك من الخلافة وقد نوى لمولانا كل آفة»[1] وكان عقبة قد دس لجعفر البرمكى خطابا يكشف عن هذه المؤامرة المزعومة. واستطاع الرشيد أن يطلع على هذا الخطاب، ولم يكن لديه أدنى شك فى حقيقة هذه المؤامرة، وقرر فى الحال أن ينزل النكبة بالبرامكة.

وحزن بنو كلاب على البرامكة كما حزن الشعب عليهم. واستطاع البطال أن يكشف للرشيد سر الرسالة المدسوسة. ولكن من الذى دسها لجعفر؟ أهو عقبة أم غيره؟ لم يستطع الرشيد أن يقطع برأى. .. وعلى كل لقد سبق السيف العذل، وانتهى عهد البرامكة الذهبى ولم يعد الرشيد راغبا فى إثارة هذا الأمر مرة أخرى.

ورأى عقبة أن يغير من خططه. فترك حيله المكشوفة ولجأ إلى حيل أخرى من شأنها أن توقع الشقاق بين أبطال بنى كلاب من ناحية، وبينهم وبين الرشيد من ناحية أخرى.

فقد حدث أن أسر البطال ابنة ملك الروم وتدعى نورى. ورغب البطال فى الزواج منها إذ كانت على حظ وافر من الجمال. ولكن عبد الوهاب الذى أغرم بها بمجرد أن وقع بصره عليها، تمنى أن يفوز بها. وعلم عقبة بهذا الأمر فحرص على توسيع هوة الشقاق بين البطلين الصديقين. بل أنه

---

(١) السيرة جـ ١٢ ص ٢٦.

حاول أن يجعل الخليفة طرفا فى النزاع حتى يبلغ الخصام أشده بين الثلاثة. فقد مهد عقبة الفرصة للخليفة لكى يبصر نورى. وما أن وقع بصره عليها حتى رغب فى الزواج منها وطلب من عقبة أن يتوسط له فى هذا الأمر. عندئذ رحل عقبة إلى نورى وأخذ يبغض لها كلا من عبد الوهاب والبطال زاعما أنهما أدنى منها منزلة. فلما أعربت له عن يأسها إذ لا مفر أن يفوز بهما أحدهما، أخبرها بأنه فى وسعه أن يزوجها بالخليفة هارون الرشيد إن هى وافقت على فعل ما يطلبه منها. ثم طلب منها أن تكتب ثلاثة خطابات بخط يدها. الأول تكتبه إلى الخليفة هارون الرشيد تشرح له فيه حرص كل من عبد الوهاب والبطال على الزواج منها، وكيف أنهما سبّا الخليفة حينما علما أن الخليفة يشاركهما حبها. وأما الخطاب الثانى فترسله إلى عبد الوهاب تكشف له فيه عن كره البطال له وعزمه على محاربته من أجلها. وأما الثالث فتكتبه إلى البطال تزعم فيه أن عبد الوهاب الذى يدعى صداقته، قد عزم على التنكيل به لأنه دائم التودد لها ويرغب فى الزواج منها. ثم أخذ عقبة الخطابات الثلاثة وسلم كل على حدة بطريقة خفية إلى صاحب الخطاب. وهكذا دب الخلاف بين الأطراف الثلاثة المعنية ونسوا بذلك المصلحة العامة. ثم انحصر الخلاف بعد ذلك بين البطال وعبد الوهاب حينما أسر الرشيد. وهنا تدخلت ذات الهمة لكى تحسم الخلاف بينهما حتى لا تتعرض المصلحة العامة للخطر. وقد شاءت أن تنصف البطال من ابنها عبد الوهاب لأن البطال هو الذى قام بأسر نورى. ولكن عبد الوهاب احتد معها احتداداً دفع بذات الهمة إلى أن تشهر فى وجهه السيف. وعندئذ خاطبها عبد الوهاب بشعره وقال:

أدلهمـة إنـى نصحـتك فارجـعى

وإلا فقـد حـان الفراق مدى الدهر

حلفت ببـيت الله والـركن والصفا

وموقـف ابراهيم والحـج والحـجر

لئن لم تعودى عـن قتـالى وموقفى

ولا تطمعى فى أخذ من هى كالبدر

وفـى كبـدى منهـا غـرام ولـوعة

وأن فؤادى مـن هـواها على جمر

وخاطبنى البطال مـن أجـل حبهـا

بأقبـح لفـظ بالفـواحـش والنـكر

ولا بـد لـى مـن قتلـه وهـو راغم

وأتـركه وقفـا علـى معظـم الأمـر

فإن تـرجعى عنـى تعـودى بفرحة

وتنجين من سيفى ومن طارق الدهر[1]

على أن المعركة أسفرت عن رضرخ عبد الوهاب لرغبة أمه وندمه على مجابهتها.

---

(١) السيرة جـ ١٩ ص ٣٢، ٣٣

obeikandl.com

أما الرشيد، الذى أطلق أسره بعد ذلك، فقد عز عليه أن يقف أبطال بنى كلاب منه موقف الند للند، وأن يحولوا بينه وبين رغباته. ولذلك فقد عزم على أن يفرق بين أبطال بنى كلاب، بأن يرسل كلا منهم إلى مكان ناء. أما عبد الوهاب فقد أسر وأرسل إلى أرض العراق. وأما البطال فقد دبر الخليفة خطة لاختطافه مع ابن عبد الوهاب الذى يدعى ظالما ثم وضع كل منهما فى صندوق أحكم قفله وسلمها إلى قافلة بعد أن منحها مبلغا من المال، وطلب منها أن تحمل الصندوقين إلى الجزر النائية، كما حذرها من فتح أحد الصندوقين إلا عند وصولها إلى تلك الجزر. وفى الطريق تقابل لصوص مع هذه القافلة وسلبوا منها الصندوقين توهما منهم بأنهما يحتويان على كنز كبير. ولكنهم فوجئوا بآدميين يتوسلان إليهما أن يحملوها إلى مكان مأهول. غير أن اللصوص شاءت أن تفرق بينهما، فتركوا ظالما فى أرض يحكمها ملك يسمى عبد الودود كما تركوا البطال فى أرض البرابرة المجاورة لبلاد عبد الودود وكان يحكمها ملك يدعى الأزور. ولم يكن الملكان يعيشان حياة وئام. وإنما كانت الحرب تدب بينهما بين الحين والآخر. وفى إحدى المعارك اشترك ظالم والبطال فى القتال، كل يحارب فى صف الملك الذى يعيش فى أرضه. ولكنهما التقيا بعد ذلك وحاربا معاً فى صف الملك عبد الودود، إذ كان الملك الأزور قاسيا عنيفا.

وفى هذا الوقت، كان هشام المؤيد يحكم فى الأندلس، وكان يخشى على ملكه من الملك عبد الودود، ولذلك فقد عزم على محاربته وأسر البطال وظالم فى بلاط الملك هشام. وهناك أطلع البطلان الملك على حقيقتهما وقصا عليه قصتهما، فقبل أن يطلق سراحهما بعد أن يشتركا

معه فى القتال ضد الافرنج. فلما تم النصر لهشام، طلبا منه الرجوع إلى ملطية. فجهز المؤيد لهما السفن كما خصهما بجيش لحراستهما. فسارت السفن فى رحلة طويلة عبر سواحل مصر حتى وصلت إلى الشام. وهناك اجتمع شمل الأبطال مرة أخرى. وسعدت بهم ذات الهمة بخاصة وأن ابنها عبد الوهاب كان قد أطلق سراحه كذلك.

وكانت رحى الحرب تدور فى ذلك الوقت بين العرب والروم، وسعد الخليفة الرشيد بوصول الأبطال، لأن غيابهم كشف له عن عجز جيش المسلمين فى صد غارات الروم. ولما تم النصر لجيش المسلمين، زاد تقدير الرشيد للأبطال وبالغ فى التودد إليهم..

ثم توفى الرشيد تاركاً الحكم لابنه الأمين وللمأمون من بعده. ولكن الخلاف دب بين الأخوين لعزم الأمين على جعل الخلافة من بعد لابنه لا لأخيه. ومن ثم فقد انقسم الشعب إلى حزبين: حزب يناصر الأمين، والآخر يناصر المأمون. أما أسرة بنى كلاب فقد وقفت فى النزاع موقفا سلبيا لأنها كانت تسعى دائما لأن تكون فى وفاق مع الحاكم حتى يتسنى لها تحقيق مآربها. ولذلك فقد غضب عبد الوهاب من ابنه ظالم حينما انضم إلى الحزب المناصر للمأمون. فكتب إليه وقال: «أما بعد فأنت تعلم أن الله تبارك وتعالى فرض عليك طاعة ولى الأمر وطاعة الوالدين ولين الجانب وترك الجفا. والذى آمرك به أن تعتزل أنت وأخيك سيف الحنيفية وأبو الهزاهز عن عسكر المأمون. وأعلم أن ما شد عزمه على مخالفة أخيه إلا أنتم ومن معكم من الفرسان والشجعان السودان. ولو كان الرشيد وهب الخلافة

للمأمون، لما كان يسعى فى الله مخالفته. وما يليق بنا أن نتخلى عن الأمين، فيقع على التوبيخ من المسلمين». ثم ختم رسالته بالأبيات الآتية:

إن كنت يا ولدى قبلت نصيحتى ... وسمعتها ورأيت ذاك صوانا
ورجعت عن حرب الأمين فلا تكن ... فى صحبة المأمون تبغ حرابا
ولئن جهلت لما أقول فإنه ... يعفيك حزنا ما عليه عتابا
ولئن أطعت أباك عشت مسلّما ... من كل نائبة ونلت ثوابا
إن الأمين هو الخليفة هكذا ... فعل الرشيد فلا تكن مرتابا
ولئن أبيت فإننى لك قاتل ... فى موقف الهيجا بلا كذابا[1]

على أن الثورة ضد الأمين لم تنته إلا بقتله، وتولى المأمون الخلافة. ولم يكن المأمون يحمل بطبيعة الحال أية ضغينة لأسرة بنى كلاب لأنهم لم يقفوا منه ـ إذا استثنينا ظالما وسيف الحنيفية ـ موقفا عدائيا. ولكن حدث بعد ذلك ما أوغر صدر الخليفة ضد أسرة بنى كلاب. فقد ثار ثائر ضد الروم فى عهد ملكهم ميخائيل يدعى كوشانوش. وكان هذا الثائر يعيش مستقلا عن الروم فى قلعة حصينة ويجمع حوله عصابة قوية من الخارجين على ملك الروم. ولما رأى ميخائيل أنه لا قبل له بمحاربة كونشانوش والعرب فى آن واحد، فقد سعى إلى مهادنة العرب بل ومصالحتهم. وأدركت ذات الهمة ببعد نظرها إن الخطر الذى يتهددهم من قبل الثائر كونشانوش لا يقل عن الخطر الذى يتهدد الروم منه. ولذلك فقد رأت أن الحكمة تقتضى الاتفاق مع الروم حتى تكسر شوكة هذا الثائر. فلما طلب ملك الروم منها ـ

(١) السيرة جـ ٣٠ ص ٤٩، ٥٠ نقلنا الأبيات كما هى فى السيرة.

بوصفها زعيمة لجيش بنى كلاب ـ أن يسلم لها عمورية فى مقابل مساعدته ضد الثائر، رحبت ذات الهمة بطلبه لأن هذا سيمكنها من الاستيلاء على بلد حصين وعلى القضاء على كونشانوش فى آن واحد. فلما علم المأمون بذلك أرسل يتهددها هى وجيشها لأنه كان يعارض مهادنة الروم كل المعارضة. بل أنه كان يرى ـ مخالفا فى ذلك رأى ذات الهمة ـ أن الانضمام إلى صف الثائر ضد الامبراطور الرومى يقدم فرصة سانحة للعرب للقضاء على البيزنطيين. ولما لم تقبل ذات الهمة وجهة نظر الخليفة أرسل لها إنذاراً نهائيا.

فردت عليه ذات الهمة وشرحت له وجهة نظرها تفصيلا ثم ختمته بقولها. «ودعنا فى ملطية فى وجوه الكفره لا لك ولا عليك، ولا تلح علينا فيخرج الأمر من يديك ويدينا».[1] ونفذت ذات الهمة خطتها. ونجحت فى القضاء على الثائر وتسلمت عمورية فى مقابل ذلك. ثم ما لبثت أن استأنفت غارتها على بلاد الروم.

وهنا شعر المأمون بخطورة بنى كلاب عليه، ولم يجد مفرا من أن يضع حدا لسطوتهم. وكان عقبة يتتبع أنباء هذا الخلاف أولا بأول. فلما أيقن أن الخلاف بلغ أشده، أخذ طريقه إلى بلاط المأمون محكما حيله. على أن خصومة المأمون لبنى كلاب لم تدم بعد ذلك طويلا، إذ لم يكن يخفى عليه حيلة عقبة، وأنه شاء الاصطياد فى ماء عكر. ولذلك فقد عدل المأمون عن موقفه من بنى كلاب، وأبدى لعقبة عداء لا رجعة فيه..

(١) السيرة جـ ٦ ص ٥٤، ٥٥.

ولما رأى عقبة أن العلاقة بينه وبين المأمون قد ساءت إلى هذا الحد، دبر مع الروم مؤامرة لأسر المأمون. وتمت المؤامرة بنجاح، الأمر الذى شجع عقبة لأن يرسل لأحد أفراد عصابته يحثه على أسر أبطال بنى كلاب. ولكن الرسالة ـ لسوء حظه ـ وقعت فى يد البطال. فأسرع ليخبر إخوانه بالمكيدة التى تدبر لهم ثم خف لنجدة الخليفة. ولكنه أدركه وهو يعانى من جرح قاتل أوشك أن يقضى عليه. ولما ساءت صحة المأمون بايع المعتصم بالله. «وكانت بيعته بنص المأمون عليه دون أولاده لرؤيا رأى فيها النبى ﷺ يأمره بذلك. وكان أبوه قد أخرجه من الخلافة وعهد إلى الأمين والمأمون والمؤتمن. فساق الله سبحانه وتعالى إليه الخلافة. وجعل الخلافة إليه والخلفاء من أولاده»[1]. وكان أبو اسحق المعتصم ابن هارون الرشيد. ولم يكن فى بنى العباس له نظير فى شدة بأسه وقوة مراسه وحزمه، ورأيه وحكمه وعلمه. وقد وهبه الله قوة زائدة حتى كان يقال له أسد بنى العباس[2]».

وفى عصر المعتصم تكشفت للمسلمين أمور ساعدتهم على تحقيق آمالهم، فقد ظهر فى جيش الروم فارس بطل خشى المسلمون أمره. وظهر بعد ذلك أنه ولد البطال من زوجته نورى، وكان قد فقد منذ زمن وهو طفل صغير فى أثناء المعارك الإسلامية المسيحية. وكان أول من أدرك هذه الحقيقة نورى نفسها. قالت يوما لزوجها: «يا أبا محمد، بحق من هدانى إلى دين الإسلام وعرفنى الحلال من الحرام، هذا مذبحون ولدى، فاكشف

(١) السيرة جـ ٤٠ ص ٤٢.

(٢) السيرة جـ ٤٠ ص ٣٦.

عن حاله فإن لى فيه ثلاث علامات. وكان مذبحون هذا ولد الأمير أبو محمد البطال، وحديثه عجيب. وقد ذكرنا أن نورى أسرت فى جزيرة قراقونا وأنه لما عرض عليها التنصر وامتنعت، أمر بذبح ولدها. فأخذه الغلمان من يدها، ونزلوا به إلى ساحل البحر. «فنظرت إليه جارية من بنات البطارقة من أرباب الأموال وأصحاب الأحوال وهو يضحك. فنادت على الغلمان بالرومى: لا تقتلوا هذا الطفل المليح الصورة[1]. وهكذا تربى مذبحون الذى أطلق عليه هذا الاسم لأنه أمر بذبحه، فى حضن هذه الراهبة حتى شب عن الطوق وأصبح فارسا من الفرسان البارزين، سعد به الروم حينما، وسعد به العرب فى معاركهم الحاسمة.

وفى عهد المعتصم أكدت النبوءة النصر للمسلمين، كما حددت ميعاده. فقد ظهر النبى ﷺ لعبد الوهاب فى رؤياه وشكى له عبد الوهاب من خداع المنافقين وعلى رأسهم عقبة وقال له: «يا رسول الله عقبة قد أضرنى، فهل ذلك الوعد الذى وعدتنى به قد اقترب؟ فقال: أتى أمر الله فلا تستعجلوه. فقال له عبد الوهاب: «يا رسول الله خلق الإنسان عجل، فمتى يكون ذلك، فقال: إذا وصلت الروم إلى الاسكندرية، وأخذت العلوية وفتح الله على أيديكم عمورية، وظهر مطرون وصلب شومدرس الملعون، وقد قرب العهد فيما بينكم[2]».

ثم أخذت هذه الحوادث تتحقق تدريجيا. فقد اقترب الروم من الاسكندرية، إذ شاءوا أن يضربوا العرب فى منطقة أخرى غير منطقة الثغور.

---

(١) السيرة جـ ٤٣ ص ٢٧.

(٢) السيرة جـ ٤٤ ص ٢٣.

أما العلوية فهى زينب ابنة إبراهيم العلوى، وكانت فارسة محاربة أسرت فى بلاد الروم زمنا طويلا، لاقت فيه شتى أنواع العذاب حتى صرخت ونادت: وامعتصماه. ولما بلغ صراخها المعتصم هب لنجدتها وأنقذها. كما تم بعد ذلك فتح عمورية بفضل حيل البطال ومهارة المحاربين. ولم يبق بعد ذلك سوى أن يتقدم المعتصم إلى أبواب القسطنطينية وإلى باب الذهب بعينه حيث يتم صلب عقبة وفقا للنبوءة. وفى هذا الوقت ظهر النبى صلى الله عليه وسلم للمعتصم فى رؤياه. وقد حكى المعتصم هذه الرؤيا لأسرة بنى كلاب وقال: «رأيت كأن أنوارا نزلت من السماء.. وإذا بشخص قد أقبل والضياء عليه تلمع.. فقال أنا محمد المصطفى. فعند ذلك مددت يدى إليه وصافحته وقبلت يديه وقلت له: يا سيدى يا رسول الله أما تدعو الله تعالى أن ينصرنا على هؤلاء الكفار؟ فقال لى يا أبا أسحق، أعلم أن الوقت قد اقترب وهو الذى أوعدت به الأمير عبد الوهاب. وفى غداة غد تنصروا على هؤلاء الكفار كما نصرنى الله تعالى يوم الأحزاب... وإنى رأيت الأميرة ذات الهمة وقد أقبلت إلى رسول الله ﷺ وقبلت يديه. فقال لها يا فاطمة ابشرى بالجنة العليا وتكونى فى جوار ابنتى فاطمة الزهراء، وهى الساعة فى انتظارك يا أم المجاهدين»[1].

ولم تنزعج الأميرة لسماع هذه النبوءة، فقد سبق أن رأت ما يشبه هذه الرؤيا من قبل، ولكنها ازدادت استبشارا لأنها سوف تسعد بلقاء ربها بصحبة فاطمة الزهراء. أما عقبة فقد أحكم أسره هذه المرة استعدادا لصلبه. فلما وصل المعتصم بجيوش بنى كلاب إلى باب الذهب، استعد الجميع

(١) السيرة جـ ٧٠ ص ٧٣، ٧٤.

مبتهجين بمشاهدة عقبة وهو يصلب. عندئذ تقدم المعتصم إليه وقال له: «يا قاضى كيف ترى قول النبى ﷺ للأمير عبد الوهاب حيث وعده بصلبك. هل صح قوله فى الرؤيا أم لا؟» وفى اللحظة التى تم فيها صلب عقبة هتف المسلمون فى صوت واحد: «قل جاء وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقا»[1].

وبهذا تم النصر النهائى للمسلمين. فقد صلب عقبة وقضى على العدو الخارجى فى آن واحد. وفى الوقت نفسه قضى الأبطال على حاملى لواء التمرد ضد الحكومة الإسلامية سواء كانوا أتراكا، أم من اتباع مزدك أم من الأحباش أم من اليهود.

وتوفى المعتصم وتولى الواثق من بعده أمور الخلافة. فلما سمع بهذه السيرة أمر بتعيين الأبطال المسلمين حكاما بالمناطق التى تم فتحها على أيديهم. ولما كانت ذات الهمة وعبد الوهاب والبطال قد توفوا، فقد حكم أولادهم فى تلك البقاع، هؤلاء الذين شاركوهم القتال والكفاح زمنا طويلا..

* * *

(١) السيرة جـ ٧٠ ص ٧٦.

obeikandl.com

السيرة والتاريخ

(أ) أين ومتى ألفت السيرة؟

إذا كان من العسير أن نحدد الزمن الذى نشأ فيه أى نتاج أدبى شعبى، بخاصة المدون منه، والمكان الذى نشأ فيه أول الأمر، لأن عملية الرواية كفيلة بأن تنقل النتاج الأدبى من مكان لآخر، وأن تتطور به عبر الأجيال، فإن هذا لن يحول بيننا وبين إلقاء الضوء على هذا الموضوع. وعلى الرغم من أننا لن نصل فى ذلك إلى حقيقة عملية مؤكدة، فأننا نود أن نبدأ بحثنا فى السيرة بمناقشة هذا الموضوع تمهيدا لدراسة الموضوعات الأخرى التى تترتب عليه.

ونود أن نشير أولا إلى أن بحثنا فى هذا الموضوع ينصب على السيرة فى صيغتها الأخيرة، أى تلك التى وصلت إلينا مدونة. ذلك أن النتاج الأدبى الشعبى المكتمل لم ينشأ منذ البداية مكتملا. وإنما تعد الصورة المكتملة لهذا النتاج المرحلة الأخيرة التى تطور إليها عن طريق الرواية الشفوية، فمن المحتمل أن السيرة جمعت بين أخبار كانت تروى فى زمن الجاهلية والعصر الإسلامى وعصر بنى أمية وعصر بنى العباس، وأن القاص استغل تلك المادة المروية فى خلق حكاية مكتملة تمثل أحوال الدولة الإسلامية فى فترة زمنية

محددة. وعلى ذلك يمكننا أن نتساءل عن الزمن الذى اتخذت فيه السيرة شكلها المكتمل.

وهنا نرجح أن السيرة كانت تروى مكتملة بعد عصر المعتصم ويحملنا على هذا الترجيح سببان.. أولهما أن الراوى كثيرا ما يشير إلى أن السيرة كانت تروى للواثق بالله بناء على طلبه، وأن الواثق بالله كان يستوقف الراوى فى بعض الأحيان ليسأله عن أمر من الأمور. ومثال ذلك ما يذكره الراوى من أن الواثق بالله يستوقفه حينما أخذ يروى عن شخصية من شخصيات السيرة هى شخصية الهدلموس بن مناطح التيوس. فقد سأله الواثق: «كيف مناطح التيوس؟ فقلت يا أمير المؤمنين قد سألت رجلا شديد البأس من أصحاب الهدلموس عن ذلك فقال لى أنه كان رجلا شديد البأس، صعب المراس، قوى الأساس، وكانت رأسه تدور عليه فى بعض الأوقات فلا تهدأ عليه حتى تعبر التيوس الكبار، فيناطحهم حتى يهربوا من بين يديه فتهدأ رأسه»[1].

هذا النص وغيره من النصوص ربما يحمل القارىء على الاقتناع بأن السيرة إنما كانت تروى للواثق بالله. وربما كان ذلك من قبيل تأكيد قيمة السيرة، حيث أنها كانت تروى للخلفاء. أما السبب الثانى الذى ربما حملنا على قبول افتراض أن السيرة اتخذت شكلها المكتمل فى الزمن التالى لعصر المعتصم، هو أن حوادث السيرة قد انتهت حقا بنهاية حكم المعتصم بالله. وأما الجزء الأخير الذى يمتد بالحوادث بعد ذلك، فيحكى أن الواثق بالله حينما سمع بأخبار السيرة حتى وفاة المعتصم بالله، هب من فوره ليتوج

(١) السيرة: ج ١٤ ص ٥٧.

بطولة أبيه، فاستأنف معاركه مع الروم، هذا الجزء نعده مقحما على السيرة لأن النصر النهائى، قد تحقق فعلا على يد المعتصم بالله كما تحكى السيرة، ولأن أسلوب هذا الجزء، من ناحية أخرى بعيد عن الأسلوب الواقعى الذى التزمته السيرة فى كل أجزائها إلى حد كبير.

ففى هذا الجزء يحكى الراوى عن الأبطال حكاية شبيهة بحكايات ألف ليلة وليلة الخرافية. فقد حبس الأبطال داخل كهف لم يعرفوا لهم فيه مخرجا. ثم عثروا على طلسم استطاعوا أن يفكوا رموزه. وقد تبين أن الطلسم وضع فى هذا المكان منذ زمن لينقذ من يحبس فى الكهف من الهلاك، إذ كان يشير إلى وسيلة يستدعى بها الجن الذين يلبون رغبة المأسورين فى لحظة. فما أن استدعى الأبطال الجن وطلبوا منهم أن يحملوهم إلى أهلهم، تحققت رغبتهم، ووجدوا أنفسهم بين ذويهم وهناك ماتوا بينهم[1].

على أن هناك شيء آخر يدفعنا إلى افتراض أن السيرة كانت تروى كاملة فى العصر التالى لعصر المعتصم، هو أن السيرة حرصت على أن تبلغ الذروة ببطولة الأبطال فى عصر المعتصم لأنه، من وجهة نظر الراوى، كان يمثل الخليفة البطل، الذى حرص أكثر من غيره من الخلفاء على أن يكلل كفاح الأبطال بالنصر، فبذل معهم جهدا بالغا حتى حقق معهم هدفهم، بل هدف الدولة الإسلامية كلها.

وليس معنى هذا أن رواية السيرة قد انتهت بانتهاء عصر الواثق، وإنما ظلت تروى بعد ذلك قرونا، فقد حكى السموءل ابن يحى المغربى، اليهودى

(١) السيرة جـ ٧٠ ص ١٣٢ وما بعدها.

الذى اعتنق الإسلام عام ٥٥٨ هـ، فى مذكراته، أنه كان يستمع إلى رواية سيرة الأميرة ذات الهمة[١].

وإذا كانت الرواية الشفوية من شأنها أنها تعرض النص المنقول إلى إضافة والحذف وربما إلى التغيير، فإننا نتوقع أن تكون السيرة قد تعرضت لإضافات عبر الأجيال، فكثيرا ما تحكى السيرة عن العرب الذين تركوا الإسلام وأعلنوا ولاءهم للدين المسيحى مناصرين فى ذلك عقبة، فكانوا بذلك شوكة فى ظهر المسلمين الأبطال. وربما كان ذلك إشارة إلى قبيلة بنى حبيب التى تركت ديارهم عام ٣٣٠ هـ، وأعلنت ارتدادها عن الإسلام وولاءها للبيزنطيين[٢].

كما أن بعض حوادث السيرة تشير إلى الحروب الصليبية. فهى تحكى

---

(١) Martin Schreiner: Samau´al B. Yahya- al- Maghribi und seine Schrift (Monatsschrift für geschichte und Wissenschaft des Judentums) Jahrgang 42, Berlin 1898, S. 127.

(٢) يقول ابن حوقل: «ولم تزل ـ أى الجزيرة ـ على ما ذكرته منذ أول الإسلام معروفة بكثرة الثمار ورخص الأسعار إلى سنة ثلاثين ثلاثمائة، فأكب عليها بنو حمدان بضروب الظلم والعدوان ودقائق الجور والغشم، وتجديد كلف لم يعرفوها، ورسم نوئب ما عهدوها، إلى المطالبة ببيع الضياع والمسقف من العقار، حتى حمل ذلك بنى حبيب إلى أن خرجوا بذراريهم وعبيدهم ومواشيهم فى نحو عشرة آلاف فارس عتيق وسلاح شاك، فتنصروا بأجمعهم، وأوثقوا ملك الروم من أنفسهم بعد أن أحس لهم النظر فى إنزالهم على كرائم الضياع.. ثم لحق بهم كثير من المتخلفين عنهم وانتمى إليهم من لم يك منهم فشنوا الغارات فى بلاد الإسلام» «كتاب صورة الأرض لابن حوقل. جـ١ ص ٢١١ طـ. ليدن ١٩٣٨».

عن ميلاس ملك الافرنج الذى أراد أن يحرر أورشليم من يد العرب. ولذلك فقد اتفق مع القيصر أرومانوس على أن يسمح لجيوشه بأن تمر خلال أرضه[1]. وإذا كانت الحروب الصليبية قد بدأت فى نهاية القرن الحادى عشر الميلادى، فإننا نتوقع أن تكون حادثة ميلاس صدى للحروب الصليبية، أى أنها صدى للحوادث التى عاشتها السيرة فى أثناء روايتها.

فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى الحديث عن المكان الذى يمكن أن يعد منشأ السيرة، فربما اسعفتنا فى ذلك القرائن الملموسة، فالسيرة كما هو واضح قد نشأت لتمجيد أسرة بنى كلاب، وإعلاء شأنها فى الجهاد الذى تحملته الدولة الإسلامية ضد الروم. وإذا كانت قبيلة بنى كلاب قد استوطنت فى مناطق الثغور لتقوم بدورها فى هذا الجهاد كما تذكر دائرة المعارف ذلك، وكما يذكر القلقشندى ذلك فى كتابه «صبح الأعشى»[2] فإننا نتوقع بعد ذلك أن يكون الموطن الأول للسيرة هو منطقة الثغور أى بلاد الشام.

---

(١) السيرة جـ ٦١ ص ١٦.

(٢) يقول القلقشندى: «ومن بنى عامر صعصعة بنو كلاب، وهم بنو كلاب بن عامر بن عصعصة، وكان لهم فى الإسلام دولة باليمامة، وكانت ديارهم حمى ضرية وهى حمى كليب وحمى الربذه فى جهات المدينة النبوية، وفدك والعوالى. ثم انتقلوا بعد ذلك إلى الشام، فكان لهم فى الجزيرة الفراتية صيت وملكوا حلب ونواحيها وكثيرا من مدن الشام. » ثم يذكر القلقشندى بعد ذلك أنهم ينتسبون إلى عبد الوهاب بن بخت المذكور فى سيرة البطال، وأنهم كانت لهم غارات عظيمة على بلاد الروم، وأن بنات الروم وأبناءهم كانوا يباعون عن سباياهم».

(القلقشندى: صبح الأعشى. المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٩١٣. جـ١ ص ٣٤٠.

وليس غريبا أن تنشأ فى منطقة الثغور ملحمة عربية تشيد بكفاح الأبطال فى الحروب العربية البيزنطية، وهى المنطقة التى عرفت صورا من البطولة فى أحقاب متتاليه حكى عنها المؤرخون بايجاز وأسهبت فى وصفها الكتب التى التى تتخذ طابع التراجم الذاتية مثل كتاب «الاعتبار» لأسامة بن منقذ. والحق أن من يقرأ الاعتبار وما فيه من حكايات بطولية تحكى بوصفها حقائق عاشها الكاتب، يدرك حينئذ أن السيرة لم تغرب كثيرا فى وصف نماذج أبطالها. ولا يسعنا سوى أن نحيل القارىء على قراءة كتاب الاعتبار الذى يعد فى الحقيقة تصويرا واقعيا لعلاقة المسلمين بالنصارى فى شتى مظاهرها الحربية والسليمة معا.

وإذا شئنا أن ندعم رأينا من حيث أن السيرة قد نشأت أول الأمر فى منطقة الثغور فإننا نستند إلى قرائن اللغوية فى السيرة نفسها. فكثيرا ما تصادفنا ألفاظ تختص بلغة الشام العامية، ومثال ذلك كلمتا «ايش» و «ايشم» أى أشأم. ثم تعبير «شحط برجليه فى الأرض»[1]. والشحاطه فى لغة الشام هى حذاء البيت. ومثال ذلك كذلك «ما هذا رأى مليح»[2]. هذا فضلا عن أن السيرة تستخدم بعض الألفاظ والعبارات الاغريقية التى كان يسمعها المحاربون ويفهمون معناها. ومثال ذلك عبارة «كيرياليسون»[3] التى كان يرددها المحاربون الروم حينما يدخلون معركة ضد العرب. والعبارة العربية

(١) السيرة جـ ١٦ ص ٥١.

(٢) السيرة جـ ١٧ ص ٣١.

(٣) السيرة جـ ٤٢ ص ٨.

تحريف العبارة الاغريقية سكرياإليسون» ومعناها: يارب رحمتك. وبالمثل فإن السيرة ـ تحكى أن الأبطال كانوا يهتفون بعبارة «لوريك»[1] إذا دخلوا المعركة. ويذكر جريجوار أن هذه العبارة أرمينية، وكان يهتف بها المحاربون وقت الشدة ومعناها: «اللهم أحفظنا»[2]. وإلى جانب هذا فإن السيرة تستخدم بعض الأسماء الاغريقية لبعض الأمكنة والبقاع وتحاول أن تفسر معناها. ومثال ذلك قلعة «دياييك»[3] أى برج الشيطان كما تذكر السيرة. وربما كانت دياييك تحريفا لكلمة دياولوس التى تعنى الشيطان. وكذلك «دير كريكانوس»[4] وتذكر السيرة أن معناها دير النذور، وبالمثل قصر طانيا[5] أى نصف الدنيا. وكل هذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن السيرة نشأت فى المكان الذى كانت تشيع فيه تلك الألفاظ والعبارات، سواء العربية منها أم الاغريقية. أى أنها نشأت فى منطقة الثغور، موطن بنى كلاب الذى استقروا فيه بعد هجرتهم من قلب الجزيرة العربية.

(ب) الأساس التاريخى للسيرة:

إذا كانت اللغة الأدبية من شأنها أن تعيد تشكيل الشخوص التاريخية بحيث تجعلها تقترب كل الاقتراب من نفسية القارىء، فإن سيرة الأميرة ذات الهمة قد أعادت تشكيل الشخوص التى روى عنها التاريخ أخباراً موجزة للغاية بحيث جعلتها تعيش مع الشعب بوصفها أروع نماذج للبطولة.

---

(١) السيرة جـ ٣٩ ص ٤.

(٢) جريجوار: مجلة بيزنطيون ١٩٣٥ ص ٦٦٥.

(٣) السيرة جـ ٣١ ص ٤١.

(٤) المرجع السابق نفس الصفحة.

(٥) المرجع السابق نفس الصفحة.

ولذلك فقد عاشت شخصية عنترة والظاهر بيبرس والبطال، فى ضمير الشعب وما تزال تعيش فى ضميره حتى اليوم.

ومعظم شخوص سيرة الأميرة ذات الهمة ـ إذا استثنينا شخصيتى ذات الهمة وعقبة اللتين لم نستطع أن نستدل على أصلهما التاريخى ـ تاريخية. فالطبرى يحكى أن «عبد الوهاب بن بخت غزا مع البطال عام ١١٣ هـ. فانهزم الناس عن البطال وانكشفوا فجعل عبد الوهاب يكر فرسه وهو يقول: ما رأيت فرسا أجبن منك، وسفك الله دمى إن لم أسفك دمك. ثم ألقى بيضته على رأسه وصاح أنا عبد الوهاب بن بخت، أمن الجنة تفرون؟»[١].

كما يحكى الطبرى أن عمرو بن عبيد الله ويحيى الأرمنى كان بطلى عصرهما. وقد كان الشعب يحبهما إلى درجة أن موتهما عام ٢٤٩ هـ أحدث شغبا واضطرابا بين الشعب، فتدفق الناس من كل صوب متجهين إلى بلاد الروم طالبين بثأرهما. ولم يحقق المسلمون ـ فيما يقول الطبرى ـ بعد موتهما أية انتصارات ظافرة[٢]. وإذا كان يحيى الأرمنى وعمرو بن عبد الله قد توفيا عام ٢٤٩هـ. كما أن عبد الوهاب توفى عام ١١٣ هـ[٣] والسيد البطال توفى عام ١٢٢ هـ[٤]، فإننا نلاحظ اختلاف الأزمنة التى

---

(١) الطبرى جـ ٣ ص ١٥٥٩.

(٢) المرجع السابق جـ ٣ ص ١٥٠٩.

(٣) المرجع السابق جـ ٣ ص ١٥٥٩ ـ ١٥٦٠.

(٤) المرجع السابق جـ ٣ ص ١٧١٦. ونلاحظ أن الاسم الكامل لعبد الوهاب وهو عبد الوهاب بن بخت قد ورد فى كل من تاريخ الطبرى وصبح الأعشى. أما السيرة فلم تذكر الاسم كاملا واكتفت باسم عبد الوهاب. أما اسم يحيى الأرمنى فقد ورد اسمه فى السيرة عابرا ومثال ذلك جـ ٢٤ ص ٧ و ٨ من السيرة.

عاش فيها الأبطال، فى الوقت الذى تجمع السيرة بينهم وتجعلهم يعيشون حوادث واحدة. وسبب هذا أن السيرة حينما شاءت أن تمجد قبيلة بنى كلاب وتفخر بها على سائر القبائل بخاصة قبيلة بنى سليم، جمعت بين بطل بنى كلاب وهو عبد الوهاب وبطل بنى سليم وهو عمرو بن عبيد الله، ولما كان السيد البطال بطلا صديقا لعبد الوهاب، فقد جعلته السيرة يناصر قبيلة بنى كلاب ضد قبيلة بنى سليم، الأمر الذى يرفع من شأن قبيلة بنى كلاب ويبرزها على قبيلة بن سليم.

على أنه ينبغى علينا أن نتساءل عما إذا كانت العلاقة العدائية بين بنى كلاب وبنى سليم ترتكز على أصل تاريخى. سبق أن ذكرنا ـ نقلا عن دائرة المعارف الإسلامية وعن القلقشندى ـ أن قبيلة بنى كلاب التى تنتسب إلى قيس كانت تسكن فى قلب الجزيرة العربية، وأنها نزحت فيما بعد إلى الشام وأرض الجزيرة. ويضيف القلقشندى أن هذه القبيلة كثيراً ما شنت الغارات على الحدود الرومية، وأنهم ينتسبون إلى عبد الوهاب بن بخت الذى سجلت بطولته فى سيرة البطال.

هذا فيما يختص بقبيلة بنى كلاب وعلاقتها بالروم. أما فيما يختص بقبيلة بنى سليم، فتذكر دائرة المعارف الإسلامية أن جزءاً من هذه القبيلة كان يسكن أرض الجزيرة. ولا يذكر المؤرخون بعد ذلك شيئا عن الدور الذى قامت به قبيلة بنى سليم فى المعارك العربية البيزنطية. على أنه من المتوقع، بما أنها كانت تسكن أرض الجزيرة، أنها أسهمت فى هذه المعارك بخاصة وأن عمرو بن عبيد الله كان ينتسب إليهم. وقد كان عمرو هذا

أمير ملطية عاصمة الثغور كما يذكر المسعودى وكما تذكر السيرة ذلك كثيرا.

على أن هذا لا يفسر العداء المستحكم بين القبيلتين كما تصوره السيرة. كما أن المؤرخين لا يذكرون شيئا واضحا عن هذه العلاقة العدائية. ونحن نرجح أن سبب هذا العداء ـ وإن لم يشر إليه المؤرخون ـ يرجع إلى الغيرة المستحكمة فى نفوس القبيلتين، حيث أنهما ترجعان إلى أصل واحد وهو قيس. وتذكر دائرة المعارف الإسلامية أن بنى سليم تعد أكبر فرع لقبيلة قيس وأنهم كانوا يسيطرون على الطريق بين مكة والمدينة، الأمر الذى كان يدفع الخلفاء بخاصة فى زمن بنى أمية، إلى استرضائهم. وقد استمرت علاقة بنى سليم بالخلفاء العباسيين بين مد وجزر، حتى كان عصر الواثق بالله، فنجدهم يبسطون نفوذهم فى المدينة ويهددون سكانها. وكل هذا يؤكد قوة نفوذ قبيلة بنى سليم فى كل من العصرين الأموى والعباسى. وليس بعيدا أن تنفس قبيلة بنى كلاب على قبيلة بنى سليم سلطانها وقوتها. وقد عاش هذا الحسد فى قلوب أفراد بنى كلاب حتى نجدهم يسجلون مجدهم ويؤكدون وجودهم فى خضم الحوادث التى عاشتها الدولة الاسلامية، الداخلية منها والخارجية. ولعل هذا يفسر لنا نزوع السيرة إلى الحط من شأن بنى سليم. بل إنها نسبت إليهم النفاق الذى كان ينخر فى عظام الدولة، ويعمل على انهيارها، متمثلا فى شخصية عقبة السليمى.

فإذا انتقلنا إلى الحوادث التى تعرضها السيرة، فإننا نجدها تنبع كلها أو جلها من أحداث التاريخ. فالسيرة تبتدىء بعصر عبد الملك بن مروان وتنتهى بعصر الواثق بالله. وقد مرت الدولة الإسلامية فى تلك الحقبة من الزمن بحوادث داخلية خطيرة. وكل هذه الحوادث عرضتها السيرة فى

إسهاب، ولونها خيال الراوى بحيث أصبحت تأخذ طابعا قصصيا جذابا. فانتقال الخلافة من الدولة الأموية إلى العباسية، ونكبة البرامكة والصراع بين الأمين والمأمون، كل هذا تحكيه السيرة فى عرض أقرب ما يكون إلى التاريخ كما أنها تحاول الربط بينه وبين حوادث السيرة الرئيسية التى تتلخص فى موقف بنى كلاب من حوادث عصرهم.

أما الحوادث التى صادفت هوى عند القاص، فلونها بخياله وإن احتفظ بجوهرها فهى تلك التى تتصل بالثورات التى حدثت سواء عند العرب أم عند الروم. وقد كانت هذه الثورات مادة خصبة للقصاص بحيث أنها تركت أثرا واضحا فى سيرة الأميرة ذات الهمة وفى الملاحم البيزنطية التى سنتعرض لها وشيكا. ويهمنا أن نشير إلى أهم تلك الثورات لكى نرى إلى أى حد كان صداها فى الحكايات الشعبية.

وفى عهد ميشيل الثانى (٨٢٠ ـ ٨٢٩م) ثار ثائر يدعى توماس الصقلبى استطاع أن يجذب حوله الذين اضطهدوا فى الحملة التى شنت ضد عباد الصور[١]. «ولم تكن العوامل الدينية وحدها هى التى جعلت

(١) فى عهد الأسرة الأيسورية قامت حملة ضد عباد الصور المبالغين فى عبادتها أريد بها تحطيم الصور وصرف الناس عن عبادتها. وكان زعيم هذه الحملة ليوالأيسورى. يقال أن ليو الأيسورى فعل هذا لاغراض سياسية، شاء من ورائها أن يقترب للمسلمين. وقيل أنه قام بها متأثرا بالحركة التى قام بها يزيد بن عبد الملك سنة ١٠٢ هـ حينما كتب إلى حنظلة بن صفوان والى مصر أن يكسر الأصنام، والتماثيل. فكسرت كلها ومحيت من ديار مصر. (انظر روح الحضارة العربية ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوى ص٧٦) ويذكر فيليب حتى فى كتابه تاريخ سوريا ص ٤٤٦ أن ليو هذا كان جنديا فى سوريا ينتمى إلى أسرة وضيعة فى مرعش. وكان يعرف أمور الخلافة جيدا. وكان يجيد العربية كما يجيد اليونانية. وحينما قام بحركته هذه وصفه مؤرخ بيزنطى بأنه ذو عقلية عربية.

توماس قويا . لأننا نجد فى تاريخ ثورته أثرا من حركة اجتماعية، فإن سكان آسيا الصغرى المجهدين بالضرس المستضعفين أمام جور الطغيان الرومى وتحكم الحكام والموظفين قد رأوا فى توماس محررا، فدخلوا فى حزبه أملا فى تحسين مستقبلهم»[1]. و «أما ناحية هذه الثورة السياسية فمهمة لأننا نلاحظ حلفا حقيقيا كاملا بين توماس والعرب. فلم يكن وجود الفرق العربية فى جيش توماس اتفاقا. ولم يكن دخولهم فيه رغبة فى السلب والغنيمة، وإنما كان المأمون فى ذلك متبعا خطة دقيقة التحديد عدائية للروم»[2]..

وهكذا تحالف الخليفة المأمون مع توماس الثائر فهددا الدولة البيزنطية زمنا طويلا. ولكن الدولة البيزنطية عبأت كل جهودها للقضاء على توماس وأنصاره. فلما انهزم توماس عام ٨٢٥م انهزم المأمون فى شخصه.

أما عن أثر هذه الحركة فى السيرة، فقد سبق أن أشرنا إلى قصة الثائر كوشانوش ضد الدولة البيزنطية، وأن امبراطور الروم طلب من ذات الهمة معاضدتها ضد الثائر فى مقابل أن يتنازل لها عن عمورية. فقبلت الأميرة عرض الامبرطور لعلمها أن خطورة الثائر على الدولة الإسلامية لا تقل عن خطورته على الدولة البيزنطية، هذا فضلا عن إنها ستغنم عمورية. كما أن تصرفها هذا لا يعنى سوى مصالحة الدولة البيزنطية إلى حين. فلما عارضها المأمون فى موقفها لأنه كان يود أن يستغل فرصة هذا الثائر فيتحالف معه مكونا قوة كبيرة تحارب الدولة البيزنطية، لم تقتنع الأميرة ذات الهمة بذلك،

(١) فازيلييف: العرب والروم. ص ٢٩. (ترجمة الدكتورين فؤاد حسنين، وعبد الهادى شعيرة ـ دار الفكر العربى).

(٢) المرجع السابق ص ٣٠.

وهددها المأمون بدوره فردت عليه قائلة: «ودعنا فى ملطية فى وجوه الكفرة لا لك ولا علينا فيخرج الأمر من يديك ويدينا».

ويمكننا أن نعد هذا الحادث فى السيرة صدى للموقف الذى وقفه المأمون من ثورة توماس. وكأن السيرة ترد على هذا الحادث بأنه ما كان ينبغى على المأمون أن يؤازر هذا الثائر وأن يدخل فى معركة غير مأمونة العاقبة، وكان أولى له أن يستغل هذا الموقف فيكسب شيئا مؤكدا من ورائه كما فعلت ذات الهمة.

أما الثورة الثانية التى قامت ضد الدولة البيزنطية وكان أثرها واضحا فى القصص الشعبى فهى ثورة قرباص. وكما كان الدافع وراء ثورة توماس الاضطهاد الدينى، كذلك كان الدافع وراء ثورة قرباص هو الاضطهاد الدينى، وإن اختلفت ظروف الاضطهادين. فقد «كانت السياسة الأرثوذكسية الخالصة التى تتبعها الدولة لا تحتمل بقاء مذاهب دينية متعددة فى الدولة.

وكان هناك جماعة من الخارجين على الأرثوذكسية هم البوليصيون وكانوا يعيشون فى أمن على حدود العرب يؤدون للامبراطورية الرومية أجل الخدمات. على أن الحكومة قررت قرارا قاسيا هو إرجاعهم إلى الأرثوذكسية بالقوة، الأمر الذى دفع البوليصيين إلى الفرار إلى ما وراء الحدود حيث تلقاهم العرب فرحين. ومن بين هؤلاء قرباص الذى هرب إلى عمرو بن عبيد الله أمير ملطية»[1] ويذكر الطبرى فى حوادث سنة ٢٤٢ هـ أن. الروم «خرجت من ناحية شمشاط بعد خروج على بن يحى الأرمينى من

(١) فازلييف: العرب والروم ص ٢٠٣ إلى ٢٠٥.

الصائفة حتى قاربوا آمد ثم خرجوا من الثغور الجذرية فانتهبوا عدة قرى وأسروا نحوا من عشرة آلاف إنسان، وكان دخولهم من ناحية ابريق قرية قربياس ثم انصرفوا راجعين إلى بلادهم فخرج قربياس وعمرو بن عبيد الله الأقطع وقوم من المتطوعة فى أثرهم فلم يلحقوا منهم أحدا»[1].

ومن الطبيعى أن تترك مثل هذه الحادثة أثرا فى القصص البطولى فى منطقة الثغور، ولذلك فسوف ندرك أثرها الواضح فى الملاحم البيزنطية. أما بالنسبة للسيرة فقد كان القاص يجد فى مثل هذه الحوادث مادة ممتعة وفيرة يلونها وفق هواه. ولهذا فإنها تبتعد فى تفصيلاتها عن الحقائق التاريخية على عكس الحوادث العربية الصرف التى يعيشها المستمع عن قرب. ولنترك السيرة تحكى لنا عن صدى هذا الحادث. تقول السيرة: «وبلغ خبره «أى خبر كوشانوش الذى كان يحكم مستقلا عن الملك الرومى فى قلعة) إلى الملك ميخائيل فهم أن يسير إليه بعساكره فقال له البترك: أيها الملك إن أنت فعلت ذلك أخرقت حشمة ملكك لأن هذا قد صار عندهم معظم.. هذا وكوشانوش كان يصيد السباع فى الفلوات حتى فرت من تلك الأرض، وكان يمضى خلفها الفرسخ والفرسخين حتى يصطادها، وكان هائل المنظر عظيم الهيكل كأنه الجمل وقومه أزيد من ثلاثمائة ألف فارس. ثم أقبل على قومه وقال لهم: خذوا الأهبة لقتال الروم وفتح القسطنطينية حتى تصير لنا المملكة. وبعد ذلك تصير الروم كلها من تحت أيديكم وتملكوا البلاد شرقا وغربا وبعدا وقربا.. ووصل الخبر إلى الملك ميخائيل ... وسمع أن كوشانوش قد طلبه فى ثلاثمائة ألف.. وأنه فتح القلعة وحده وفيها ألفين

(١) الطبرى: جـ ٣ ص ١٤٣٤.

بطريق معظم فى عينيه وقال هذا أشد على من المسلمين.. هذا وأن البطال هو وغلمانه قد اختلطوا مع عساكر كوشانوش من النهار وقالوا هذا الملك أحب إلينا من غيره لأنه قد وعده المسيح أن يملك الأرض...»[1].

ثم تظل السيرة تحكى لنا عن المعركة التى دارت بين هذا الخارجى وبين ميخائيل، تلك المعركة التى أسفرت عن أسر الملك ميخائيل وبعض أبطال العرب. فيما عدا الأميرة والبطال. ولهذا فقد انتهزت الأميرة ذات الهمة فرصة خلو بلاد الروم من حاكم يحكمها، إذ كان كوشانوش قد أوغل بجيشه بعيدا يطلب الانتصار تلو الانتصار، فدخلت الأميرة بجيوشها إلى القسطنطينية، الأمر الذى دفع كوشانوش لأن يرجع إليها فى سرعة. وانهزم كوشانوش وأطلق سراح الملك الرومى ميخائيل الذى رجع إلى بلاده واسترد ملكه.

ولا يسعنا سوى أن نفترض أن مثل هذه الحوادث فى السيرة ليست سوى صدى لثورة توماس أو قرباص أو غيرهما.

فإذا انتقلنا إلى ذكر أثر الثورات العربية على القصص الشعبى فإننا نلاحظ أن السيرة كثيرا ما تشير إلى ثورات يقوم بها خارجون من الفرس على الدولة الإسلامية. فمن ذلك ماتذكره السيرة عن ثورة ذى النجدتين اسماعيل بن هزامرد ضد المعتصم[2]. وما تذكره كذلك عن ثورة رجل يدعى هرمس.. فتحكى أنه «كان فى أرض البصرة حصنا منيعا يقال له الحمام وكان قديما من العهد الأول وكان خرابا، فتبناه رجل يسمى هرمس وكان مجوسيا يعبد

(١) جـ ٣١ ص ٤٨ إلى ٦٠.
(٢) جـ ٤٧ ص ٣٠.

النار وكان شجاعا مناعا ومعه أربعمائة رجل كأنهم السباع، وقد قطع الطريق وخان السبيل وأخذ القوافل وملك البلاد. فاتصلت أخباره إلى الخليفة فأرسل ينهاه عن ذلك». أما عقبة فإنه قال: «ما يتم ما أريد إلا بهرمس. فسير إليه عشرة آلاف دينار ودخل على المعتصم وقال له: اشتهيت أن أزور أمير المؤمنين على بن أبى طالب. فقال له الخليفة المعتصم اصبر حتى يرحلوا إلى ملطية وارجع سافر. فقال له يا أمير المؤمنين لا يمكننى ذلك لأننى رأيت الامام على بن أبى طالب رضى الله عنه فى النوم وهو يتشوق إلى ويقول لى يا قاضى ما صرت تشتاق إلى زيارتى. فقال له المعتصم أفعل ما بدا لك.. ولكن قل لى متى تعود. فقال فى غداة غد أروح.. ثم أنه أوصى المعتصم بكتمان سره.. وسار (أى عقبة) يقطع الأرض إلى أن وصل إلى البصرة وعرج منها طالبا حصن الحمام ونزل على هرمس المجوسى.. فقال له عقبة يا هرمس أعلم أننى كما يقال ويقولون عنى أعدائى بأننى نصرانى وذلك بأنى اختبرت جميع الأديان فما أعجبنى منها إلا دين النصرانية لأن لى فيه منافع ومسرة. ومهما أردت من المال فإن الروم كلهم خلفى ومن تحت حكمى وهم فى عدد الرمال والحصى وأموالهم لى مباحة.. ولقد كان الملك أرمانوس قد قال لى أريد منك رجلا شجاعا صنديدا مناعا فكتبت إليه أقول، ما أعرف بهذه الصفة إلا رجلا يقال له هرمس المجوسى وله عند الخليفة إقطاع مقدار عشرون قرية فى الديوان. فكتب إلى يقول: يأتى إلى وأنا أعطيه مدينة من مداين الروم كبيرة حولها ضياع بعدد أيام السنة وهى الروضة الكبرى وأقدمه على عسكرى»[1].

(١) جـ ٤٩ من ص ٣ إلى ٥.

فإذا شئنا أن نربط بين هذه الحوادث والوقائع التاريخية التى ترتبط بها، فإننا نقف قليلا أمام ثورتين كان لهما أبلغ الأثر فى البلاد الإسلامية من ناحية وفى الحروب العربية البيزنطية من ناحية أخرى.

فقد نجم عن الصراع بين الأمين والمأمون ثورة نصر بن شبث العقيلى أحد أنصار الأمين. ويروى فازلييف أخبار نصر بن شبث نقلا عن المؤرخين البيزنطيين أهمهم ميشيل السورى فيقول: «ولو أن نصرا كان طاغية فإنه كان يحب المسيحيين ويفرض جزية قاسية على كل من يترك منهم دينه. وكان يقول: ليس لى عندكم إلا الجزية وكل فرد منكم بعد ذلك حر فى اختيار عقيدته. وهكذا عاد الكثيرون من المساجد إلى الكنائس»[1].

ويضيف فايل فى كتابه: «تاريخ الخلفاء» إلى قول ميشيل حوادث أخرى فيقول: «ولما علم نصر الثائر أن المأمون، ملك الطائيين تهيأ للقدوم إلى بغداد دعى كاتبه وهو مسيحى متعلم وأملى عليه خطابا للبطريق أمانويل كما لو كان يريد التحالف مع الروم. فلما علم الامبراطور ميشيل بذلك، بعث رسله فوصلوا إلى كيسوم فوجدوا نصرا خرج إلى سروج، وبلغه الخبر وهو بها فجمع أنصاره وأعلمهم الخبر وفخر بقدوم رسول الروم. فحنق الأنصار وقالوا: أتريد أن تغضب الله وترتد؟ حتى ملأوا نفسه حقدا بمثل هذا فأرسل من قتل رسول الروم»[2].

ثم يقول: «وكان الثعبانان نصر والعباسى (وهو حليف لنصر) يسودان فى

(١) فازلييف. ص ٨٣.
(٢) فازلييف. ص ٨٧.

كل المنطقة الغربية ويذيقون الناس العذاب. وكانوا يتحاضون على الشراب ويتنافسون فى القوة على احتماله»[1].

وكان على المأمون أن يواجه ثورة أخرى غير ثورة نصر وهى ثورة بابك الخرمى التى اندلعت فى اذربيجان عام ٨١٦م، «وكان الثوار أتباع مذهب شيوعى هو الخرمية وعلى رأسهم بابك الفارسى. وكانوا يسكنون خاصة الاقليم الجبلى الواقع بين أذربيجان والديلم إلى همذان والدينور. وكان كثير من قبائل هذه الناحية اعتنق آراء بابك وثاروا معه على المأمون. وتميزت هذه الثورة بحدتها وتعصب الفريقين المتحاربين. وقد طالت عشرين سنة ولم تنته إلا بعد موت المأمون. وانهزمت فى أثناء ذلك جيوش الخليفة مرات وأباد بابك الجيش الذى بعثه الخليفة فى ٨٢٩ ـ ٨٣٠ كله مع قواده.. وقد قورنت خططه بخطط هانيبال»[2].

ولم تنته الثورتان فى عصر المأمون وإنما امتدتا حتى عصر المعتصم بالله. ففى شتاء عام ٨٣٣م أرسل المعتصم أمير بغداد اسحق بن إبراهيم فأهلك ستين ألف فارسى فى همدان وهرب الخرمية الآخرون إلى الروم مع رجل يسمى نصر ويسميه الروم تيوفوب»[3].

ويقال أن نصرا هذا هو نصر بن شبث. وكان لهذا الأخير ولد يسمى منصورا خلد اسمه فى الملحمة البيزنطية كما سنرى ذلك فيما بعد.

ولعل كل هذا يؤكد لنا أن ما ترويه السيرة من أخبار الثورات التى قامت

---

(١) المرجع السابق ـ نفس الصفحة.

(٢) المرجع السابق ص ٨٨ وانظر الطبرى جـ ٣ ص ١٠١٥.

(٣) فازيلييف: ص ١١٣.

فى كل من الدولة البيزنطية والدولة الإسلامية إنما يرتكز على أساس واقعى.

ونضيف إلى هذا أن السيرة لم تغفل عن ذكر أهم المعارك الحربية التى دارت بين العرب والروم مثل حملة مسلمة بن عبد الملك أشترك فيها الصحصاح جد الأُميرة ذات الهمة[1].

وقد ذكرت السيرة أن حصار العرب للقسطنطينية دام سنين طويلة حتى اضطر العرب إلى بناء مدينة مواجهة للقسطنطينية أطلقوا عليها اسم المستجدة. وبالمثل فإن كتب التاريخ تحكى لنا كثيرا عن هذه المعركة التى دامت سبع سنوات انتهت بفشل العرب فى فتح المدينة الحصينة[2].

وبالمثل فقد أسهبت السيرة فى وصف معركة عمورية. وكانت حادثة

---

(١) انظر ملخص السيرة.

(٢) فى عهد سليمان بن عبد الملك كان الحصار الثالث للقسطنطينية. وكان قد اخترع حديث مؤداه أن مدينة القسطنطينية ستتفتح على يد خليفة يسمى باسم نبى وكان الغرض من هذا الحديث حث المسلمين على الجهاد. وبتأثير هذا الحديث تدفق الناس للاشتراك فى معركة حصار القسطنطينية يقودهم مسلمة بن عبد الملك. ويقال أن السيد البطال كان رئيسا لمعسكراته. انظر.

M.A. Cheira : La lutte entre Arabes et Byzantines aux VII et VIII Siéveles. (Société de Publication) P. 180 - 182.

«وفى ذلك الوقت كان «ليون» الجندى البيزنطى يطمع فى الوصول إلى الملك وقالت له الروم. إن صرفت عنا المسلمين ملكناك. فاستوثق منهم. فأتى مسلمة فقال له: أن الروم قد علموا أنك لا تصدقهم القتال وإنك تطاولهم ما دام الطعام عندك. فلو احرقته اعطوا الطاعة بأيديهم. فأمر فأحرق، فقوى الروم وصاب المسلمون حتى كادوا يهلكون. وبهذا أصبح ليون محاربا وقد صنع خديعة لو كانت امرأة لعيبت بها». تاريخ ابن الأثير طـ. ليدن جـ ٥ ص ١٨.

المرأة التى أسرها الروم وصرخت «وامعتصماه»[1] موضوعا مثيرا استغله القاص فى وصف معركة عمورية، وربط به تحركات المعتصم فى هذه المعركة حتى فرغ من الاستيلاء على عمورية. تقول السيرة: «ثم إن المعتصم أدار وجهه إلى بلاد الروم وقال لبيك لبيك أيتها الداعية لبيك أيتها المنادية، ناديني على أذن صاغية وعين على خلاصك باكية، ولابد لى ما أرمى الروم من أجلك بداهية ثم هتف بشعره:

لا رعانى خالقى إن لم أكن ... حافظا رعيتى منـاديا
ولا أكون تحت ظل خيمة ... حتى أرى بعينى المناديا
قد أوجب الله على أننى ... أجيب للداعى إذا دعانيا
وأكفل الأيتام عن آبائها ... وأرحم الأرامل البواكيا[2]

فلما فتح المعتصم عمورية ووصل إلى زينب الأسيرة، قال لها: «يا زينب فقالت له لبيك.. فقال لها أرفعى صوتك ونادى وامعتصماه.. فعند ذلك رفعت صوتها ثم نادت وامعتصماه!.. فأجابها المعتصم وقال لها: لبيك لبيك.. هاأنذا قد سمعت نداءك وبادرت إلى خلاصك من أعدائك»[3].

وبهذا نستطيع أن نقول ان الصلة بين حوادث السيرة ووقائع التاريخ قوية. ولكن هل معنى هذا أن السيرة تحكى لنا تاريخا؟ هنا يتحتم علينا أن نفرق بين التاريخ العلمى والتاريخ الشعبى. أما التاريخ العلمى فيقوم على أساسين:

(١) ابن الأثير جـ ٦ ص ٣٣٩.
(٢) السيرة جـ ٥٥ ص ٤١.
(٣) السيرة جـ ٥٦ ص ٣٤.

أولا التدوين وثانيا تسلسل الحوادث تسلسلا موضوعيا زمنيا. فإذا افتقدت عملية التاريخ أساسا من هذين الأساسين، فإنه لا يعد تاريخا علميا. أما التاريخ الشعبى فيعتمد أولا على الرواية الشفوية. كما أنه لا يحرص على تتابع الحوادث تتابعا زمنيا. فقد يكتفى الشعب برواية حادثة ينتزعها من بين ثنايا التاريخ ويظل يرويها لأنها تهمه. وليس من الضرورى أن تكون هذه الحادثة مهمة من الناحية التاريخية، وإنما يكفى أن تكون الحادثة مستجيبة لرغبة جماعية، تعيش فى نفوس الشعب زمنا طويلا.

ومن ثم فإن سيرة الأميرة ذات الهمة تعد تاريخا شعبيا، لأنها اعتمدت على الرواية الشفوية إلى أن دونت، ولأنها انتزعت بعض الحوادث المثيرة من بين الحوادث التاريخية المتتابعة واهتمت بها دون غيرها. ومن الطبيعى أن تربط السيرة هذه الحوادث التاريخية بنسيج قصتها. وأن تعتمد على روايتها على رأى الشعب فى هذه الحوادث. ويمكننا أن نتبين هذا فى وضوح إذا عرضنا لحادثة تاريخية مهمة هى حادثة نكبة البرامكة لكى ندرك الفرق بين ما رواه التاريخ العلمى بصدد هذه الحادثة وما روته السيرة.

يقول الطبرى فى حوادث سنة ١٨٧ : «فما كان فيها من ذلك قتل الرشيد جعفر بن يحيى بن خالد وإيقاعه بالبرامكة.

أما سبب غضبه عليه فإنه مختلف فيه. فمن ذلك ما ذكر عن بختيشوع بن جبريل عن أبيه أنه قال: إنى لقاعد فى مجلس الرشيد إذ طلع يحيى بن خالد وكان فيما مضى يدخل بلا إذن. فلما دخل وصار بالقرب من الرشيد وسلم، فرد عليه ردا ضعيفا. فعلم يحيى أن أمرهم قد تغير. قال ثم أقبل على الرشيد فقال يا جبريل يدخل عليك وأنت فى منزلك أحد بلا

إذنك.. فقلت لا ولا يطمع فى ذلك. قال فما بالنا يدخل علينا بلا إذن..»[1].....

وذكر أبو محمد اليزيدى وكان فيما قيل من أعلم الناس بأخبار القوم. قال: من قال أن الرشيد قتل جعفر بن يحيى بن عبد الله بن حسن فلا تصدقه. وذلك أن الرشيد دفع يحى إلى جعفر فحبسه. ثم عاد به ليلة من الليالى فسأله عن شىء من أمره فأجابه إلى أن قال: اتق الله فى أمرى ولا تتعرض أن يكون خصمك غدا محمد ﷺ فوالله ما أحدثت حدثا ولا أويت محدثا. فرق عليه وقال له: اذهب حيث شئت من بلاد الله. قال وكيف أذهب ولا آمن أن أوخذ بعد قليل، فأرد إليك أو إلى غيرك. فوجه معه من أواه إلى مأمنه. وبلغ الخبر الفضل بن الربيع من عين كانت له عليه من خواص خدمه. فعلا الأمر فوجده حقا وانكشف عنده ودخل على الرشيد فأخبره. فرآه أنه لا يعبأ بخبره وقال له: أنت وهذا لا أم لك. فلعل ذلك عن أمرى. فانكسر الفضل، وجاءه جعفر فدعا بالغذاء فأكلا، وجعل يلقمه ويحادثه إلى أن كان آخر ما دار بينهما أن قال: ما فعل يحيى بن عبد الله؟ قال بحاله يا أمير المؤمنين فى الحبس الضيق والأكبال.

قال: بحياتى. فأحجم جعفر وكان من أدق الخلق ذهنا وأصحهم فكرا. فهجس فى نفسه أنه قد علم بشىء من أمره. فقال: لا وحياتك ياسيدى، أطلقته وعلمت أنه لا حياة به ولا مكروه عنده. قال نعم، ما فعلت ما عدوت ما كان فى نفسى.. فلما خرج اتبعه بصره حتى كاد أن يتوارى

(١) الطبرى جـ ٣ ص ٦٦٧.

من وجهه ثم قال: قتلنى الله بسيف الهدى على عمل الضلالة إن لم أقتلك. فكان من أمره ما كان[1].

وهكذا يأتى الطبرى بمختلف الآراء التى قيل أنها كانت سببا فى نكبة البرامكة، دون أن يتحمس لرأى من الآراء لأن التاريخ العلمى لا يقبل القطع برأى فيها..

وأما ما تذكره السيرة بصدد هذه الحادثة فيختلف تماما عما يرد فى كتب التاريخ لأن السيرة تحرص، كما ذكرنا، على أن تربط الحادثة بنسيج حوادثها من ناحية، وإن تعرضها من وجهة نظر الشعب من ناحية أخرى. وفيما يلى نص السيرة فى هذه الحادثة:

يقول الراوى: «وأما ما كان من الامام الرشيد، فإنه لما سار ووصل إلى ملطية ونزل عليها أمر بعمارتها. فجمعوا الصناع من سائر البقاع وشرعوا فى البناء. وبعد ذلك سار الخليفة إلى بغداد ودخل فيها وجلس على كرسى خلافته. وكان عقبة حاضرا فى ذلك المجلس. ونظرا إلى جعفر بين يدى الرشيد، وكل واحد يتكلم على قدر ما يشتهى ويريد ومن جملتهم الوزير جعفر بن يحيى البرمكى، وقد تكلم فى حق الأمير (يعنى الأمير عبد الوهاب ولد ذات الهمة، وتحرص السيرة دائما على أن تلقبه بلقب الأمير) بما يليق بأخلاقه الكريمة. فصعب ذلك على الملعون عقبة ولم يستطع أن يسمع المدح فى حق الأمراء. فنهض من وقته من مجلس الخليفة وقصد إلى داره، وقد صح عنده نعصب جعفر للأمراء لأنه رآه يشكر لهم الإحسان

(١) تاريخ الطبرى: جـ ٣ ص ٦٦٧ إلى ٦٧٠.

ويرد غيبتهم عند السلطان. فقال: وحق المسيح والحواريين لابد أن أعمل على هلاك البرامكة أجمعين»[1] ثم اتفق مع الفضل بن الربيع على أن يكتب خطابا بخط جعفر البرمكى ويدسه له فى عمامته عن طريق أقرب خادم له. وفى هذا الخطاب يسب جعفر الرشيد ويتهمه بأبشع التهم. وقبل الخادم أن يفعل هذا فى مقابل مساعدته عقبة له على إتمام زواجه ممن يحبها. ثم ذهب عقبة إلى الرشيد وأخبره أن جعفر البرمكى يحقد عليه ويعمل على إبعاده عن كرسى الخلافة، وعلى الرشيد أن يطلع على الرسالة التى يخبئها جعفر فى عمامته حتى يتأكد من صدق قوله.. وفتش جعفر وعثر على الرسالة. فلم يكن هناك مفر من أن ينزل الرشيد النكبة بالبرامكة.

ولم تكتف السيرة بربط حادثة البرامكة بجوهر السيرة، وإنما أسهبت فى وصف نكبتهم وصدى هذه النكبة عند الشعب. ومن خلال هذا السرد الطويل نتبين كيف كان الشعب يحب البرامكة لكرمهم وحسن معاملتهم إلى درجة أن صورت السيرة جعفر وليا نبيء بالكارثة قبل أن تحدث. فقد «خرج يوما من بعض الأيام يبتغى الصيد فنظر أمامه إلى ظبية فتبعها وانفرد عن موكبه. فلما اقتنصها سمع هاتفا يقول هذه الأبيات:

أتطلب صيدا والمنايا تطلبك ... إما بليل أو نهار تعطبك

بجسر بغداد بجامعه يصلبك ... وليس فى الناس حبيبا يقربك[2]

---

(١) السيرة جـ ١٢ ص ٢٥.

(٢) السيرة: جـ ١٢ ص ٣٠.

بل إن ولاية جعفر أكدت وجودها بعد وفاته. فقد اعتاد رجل أن يعيش على ما يتصدق به جعفر عليه. فلما مات جعفر جلس الرجل عند قبره يبكيه حتى غالبه النوم. فرأى جعفر فى رؤياه وأمره أن يرحل إلى البصرة. فيذهب إلى حانوت معين وصفه له، ويقول لصاحب هذا الحانوت: بأمارة الفول أعطنى ثلاثة آلاف دينار وفوجيء الرجل عندما وجد صاحب الحانوت يقدم له ثلاثة آلاف دينار على الفور، وطلب منه أن يفسر له هذا الأمر الغريب، فأخبره صاحب الحانوت بأنه كان رجلا فقيرا يبيع الفول. وفى ذات يوم خرج ليبيع الفول فسقط المطر عليه وأغرق فوله. ورآه جعفر وعلم أنه فقير يسترزق من بيع هذا الفول.

فغمره بعطفه وأغدق عليه بمال مكنه من فتح هذا الحانوت الذى يدر عليه ثروة طائلة[1].

والشعب مغرم باختراع الحكايات التى تعلل بعض المناسبات التاريخية، مثل مناسبة بناء مدينة بغداد. فقد كان المنصور يبحث عن مكان يبتنى فيه المدينة التى شاء بنائها. فأخذ يسير حتى وصل إلى نهر دجلة، فأعجبه المكان، ثم رأى ديرا يسكنه راهب. فاستدعاه وسأله عن اسمه. فأخبره أن اسمه باغ، كما أن الأرض التى يسكنها تسمى داد. كما أخبره الراهب بأنه قد قرأ فى الكتب أن هذا المكان ستشيد فيه مدينة كبيرة. عندئذ شرع المنصور فى بناء المدينة وسماها بغداد، على اسم الراهب والأرض[2].

ومن هنا ندرك أن الفرق جوهرى بين التاريخ العلمى والتاريخ الشعبى.

---

(١) السيرة: جـ ١٢ ص ٣٩.

(٢) السيرة: جـ ٦ ص ٤١.

ومع هذا فالتاريخ الشعبى يعتمد أولا على حوادث التاريخ. وليس أدل على ذلك من أن السيرة تركزت حول حادثة هجرة بنى كلاب إلى منطقة الثغور، والدور الذى لعبوه فى الحروب العربية البيزنطية. ولولا إشارة القلقشندى لهذه الحادثة لحسبناها خيالا صرفا.

* * *

obeikandl.com

السيرة بوصفها..
عملا روائيا مكتملا

على الرغم من الصلة الوثيقة بين السيرة والتاريخ، فإن السيرة لا تهدف إلى حكاية حوادث حقبة من التاريخ من وجهة نظر الشعب فحسب، وإنما تهدف كذلك إلى الجمع بين أشتات هذه الحوادث فى شكل رواية شعبية طويلة. ومن ثم فإنه ينبغى علينا أن نرى إلى أى حد تعد السيرة مستوفية لخصائص العمل الروائى. ولكى نفعل هذا يتحتم علينا أن نبحث الموضوعات الآتية:

أولا: شخصيات السيرة.

ثانيا: السيرة بوصفها عملا أدبيا وفنيا.

ثالثا: السيرة بوصفها فنا شعبيا.

أولا ـ شخصيات السيرة

الأميرة ذات الهمة:

هى فاطمة بنت مظلوم بن الصحصاح بن جندبة بن الحارث الكلابى. وقد لقبت فيما بعد بلقب الأميرة ذات الهمة. وتاريخ حياة الأميرة ذات

obeikandl.com

الهمة يرسم الخطوط العريضة التى غالبا ما تتمثل فى حياة كل بطل شعبى، سواء كان ذلك فى الأسطورة أو الحكاية الخرافية أو الحكاية الشعبية. فحياة البطل تبدأ بظهور أمارات غريبة عقب ولادته أو قبلها. وقد تكون هذه الأمارات نبوءة تشير إلى بطولته المستقبلة. وقد تبتهج الطبيعة بولادة الطفل، فتظهر فى الكون ظواهر غير عادية، وقد تبدو أمارات البطولة واضحة على الطفل أثر ولادته. أما الأميرة ذات الهمة فقد ولدت و «كأنها البدر قوية السواعد والأطراف، هائلة الأكتاف».

ثم يحدث بعد ذلك أن يكون الطفل ـ لسبب ما ـ غير مرغوب فيه، فيبعد عن أهله، فقد تطلع نبوءة الأهل على خطورة الطفل المستقبلة. وقد يبعد الطفل لسبب اجتماعى يكون وليد البيئة التى ينشأ فيها الطفل، كما حدث للأميرة ذات الهمة. فقد اتفق الأخوان ظالم ومظلوم قبل ولادة طفليهما على أن تكون الأمارة من بعدهما للولد الذكر. فإن ولد لهما ولدان تكون الامارة مناصفة بينهما. وربما بدا لأول وهلة أن الحياة قد أنصفت الأخ الظالم وهو يدعى بالفعل ظالم، فمنحته الولد سماه الحارث، وأنها تخذل الأخ المظلوم بأنه منحته فاطمة. ولكننا سنرى حينما نتحدث عن العناصر الفولكلورية فى السيرة ـ أن هذا قانون شكلى تلتزمه حكايات البطولة الشعبية. وعلى كل فقد أبعدت ذات الهمة عن أهلها لسبب اجتماعى هو وليد البيئة العربية. فقد خشى والدها أن يلحق به الذل والهوان إن هو أعلن نبأ ولادتها، فسلمها إلى المرضعة سعدى لترعاها وتخفى عنها خبر أصلها حينما تكبر. فتربت فاطمة فى رعايتها حتى وصلت مرحلة النضج، وقد ظهرت عليها أمارات البطولة النادرة. ثم لعبت الصدفة دورها فى أن تتعرف ذات الهمة على أهلها فتنضم إلى صفوفهم وتنصفهم من

أعدائهم[1]. وشاع بعد ذلك حب ابن عمها الحارث لها وإصراره على الزواج منها. ورحب أبوه ظالم بهذه الرغبة وشرح لزوجته سبب ترحيبه بهذه الزواج رغم ما يكنه من كره لذات الهمة فقال: «وقد عزمت أن أزوجه بها لوجهين: الأول لجمالها، والثانى أنها إذا صارت له انكسرت حرمتها وقل نشاطها وذهبت قوتها، وبانكسارها نحن نبلغ من أبيها سائر الأغراض»[2] ولم يخف على ذات الهمة التى اتسمت بالذكاء والحكمة نوايا عمها، فوقفت منه ومن ابنة ذلك الموقف البطولى المشهود، إلى أن استطاعت أن تتخلص منهما تماما، حينما نزحت إلى منطقة الثغور مع جيش بنى كلاب.

وفى ملطية عاصمة الثغور تزعمت ذات الهمة جيشها. وكانت سياستها سلاحا ذا حدين. فهى تهدف من ناحية إلى توحيد صفوف قبيلتها تحت لواء الخليفة منعا لحدوث الفتن والاضطرابات. إذ كان مبدؤها أن الحياة لا تخذل صاحب الحق. ولهذا فقد عارضت عمها ظالم حينما رفع لواء الثورة على الخليفة المنصور ورد على رسوله قائلا: «يا شيخ ما الذى كان بيننا وبين المنصور حتى إنه عزلنا عن الملك. وإنما كان أبانا محبا لبنى أمية وقد هلك الجميع وصاروا فى القبور، فارجع إلى صاحبك وقل له عرب البر لا يدخلون تحت طاعتك، ومن جاء إلينا كانت سيوفنا إليه أقرب من كلامه»[3]. من ناحية أخرى تستقل برأيها عن الخليفة إذا رأت أن المصلحة

(١) انظر تفسير هذه الظاهرة فى فصل «ميلاد البطل» من كتاب أشكال التعبير فى الأدب الشعبى للمؤلفة.

(٢) السيرة جـ ٦ ص ٣٣.

(٣) السيرة جـ ٦ ص ٥٤، ٥٥.

العامة تقتضى ذلك. وقد سبق أن رأينا موقفها من الخليفة المأمون بشأن الثائر الرومى فى عهد الامبراطور ميخائيل.

ثم كانت ذات الهمه فضلا عن ذلك. تمتلك صفتين يتسم بهما القائد الناجح وهما الشجاعة والإقدام، وقوة الشخصية. فإذا أضفنا إلى ذلك حكمتها فى سياسة الأمور، فإننا ندرك أن عوامل النجاح كانت مهيئة لذات الهمة لأن تكون قائدة لجيش بنى كلاب.

وقد نتسائل بعد ذلك عن السبب فى أن يكون قائد الجيش الكلابى امرأة وليس برجل. والواقع أن المرأة البطلة ليست غريبة عن التاريخ والقصص الشعبى بصفة عامة. فحكاية الاسكندر الأكبر الشعبية تحكى عن نساء الأمازون اللاتى كن يرفضن معاشرة الرجال ويحاربون ببسالة نادرة كل من تعرض لهن. وحكاية الملك عمر النعمان التى سنتعرض لها وشيكا تحكى لنا عن أبريزه البطلة الرومية التى كانت تصرع كل من تعرض لمبارزتها. وليست نماذج البطولة النسائية قاصرة على الأدب الشعبى.. وإنما قد تتحقق فى عالم الواقع. فالتاريخ يمدنا بأخبار عن امرأة تشارك ذات الهمة فى كثير من صفاتها وهى زنوبيا ملكة تدمر. فكلتاهما اتسمت بالعفاف والعزوف عن معاشرة الرجال. فقد أبدت ذات الهمة رغبتها منذ البداية فى أن تعيش حرة مستقلة. فلما أرغمت على عقد قرانها من ابن عمها والدخول به غدراً، لم تعتبر ذلك قيدا طوقت به، وإنما تركت زوجها حرة مختارة وضمت ابنها إليها، ورحلت مع قومها إلى منطقة الثغور لتحارب متطوعة فى سبيل إعلاء كلمة الحق. وبالمثل تخلصت زنوبيا من زوجها وأبت أن تتزوج من بعده وضمت إليها ابنها وهب اللات ونشأته نشأة الفروسية. وكما أن ذات الهمة حاربت الروم، كذلك حاربت زنوبيا الروم فى شجاعة واستبسال.

ولا نعنى من هذه المقارنة، أن نقرن ذات الهمة بزنوبيا، فكل منهما تختلف عن الأخرى فى الغاية والوسيلة، ولكننا نود أن نؤكد أن شخصية المرأة البطلة لم تكن غريبة عن التاريخ وعن القصص الشعبى فى العالم بأسره. وقد تجسدت هذه البطولة بكامل مقوماتها فى شخصية الأميرة ذات الهمة.

عبـد الوهـاب:

على الرغم من أن عبد الوهاب ولد ذات الهمة هو بطل السيرة الأول، فإن نلاحظ من خلال أجزاء السيرة العديدة أنه لم يكن إلا ظلا لأمه. فما كان له أن يخالف رأيها، وما كان له أن يقرر أمرا دون الرجوع إليها. وربما كان ذلك بدافع تركيز البطولة فى شخصية ذات الهمة. فبطلة السيرة الأولى لابد أن تتوفر لها خصائص تميزها عن الشخصيات البطولية الأخرى. وربما فسر ذلك تفسيرا آخر نفسيا، وهو أن تربية عبد الوهاب فى حضن أمه وحدها جعله يرتبط بها ارتباطا قويا، بحيث أنه لم يتمكن من التخلص من سيطرتها عليه فى كل أطوار حياته. كما أنها هى ـ نتيجة هذا الدافع النفسى نفسه ـ أصبحت تمارس سيطرتها عليه حتى لا يستقل عنها. ولهذا فإن ذات الهمة لم تعارض زواج عبد الوهاب من علوى، لأن علوى المرأة العربية قد تعودت الخضوع لزعيم القبيلة. ومن ثم فقد خضعت لذات الهمة خضوع أى فرد آخر لها. ولهذا فإن علوى لم تلعب دورا واضحا فى حياة عبد الوهاب. فلما وقع عبد الوهاب فى حب نورى الرومية عارضت ذات الهمة بكل قوة رغبة ابنها فى الزواج منها، وكانت حجتها فى ذلك أن البطال ـ وكان يحبها كذلك ـ أولى أن يكون زوجا لها لأنه هو الذى

أسرها. وعلى الرغم من أن نورى كانت تكره البطال وتفضل عليه عبد الوهاب، فإن ذات الهمة أصرت على موقفها، حتى بلغت سورة الغضب من عبد الوهاب مبلغها ورضى أن ينازلها حتى يحكم السيف بينهما. وانتصرت عليه ذات الهمة بطبيعة الحال ونظرت إليه وهو ملقى على الأرض وقالت له: «يا عبد الوهاب أنا أسألك سؤال الوالدة لولدها، بحرمة الثدى الذى أرضعتك به، لا تجعل شهوتك تغلب مروءتك»[1]، وإزاء هذه الذكرى، ذكرت علاقته القوية بأمه خجل عبد الوهاب من معارضته لأمه، وترك نورى وشأنها ورجع إلى أمه راضخا.

ولا نود بذلك أن نضعف من شخصية الأمير عبد الوهاب كما تسميه السيرة، إذ لم تكن بطولته الجسدية تقل عن بطولة ذات الهمة شيء. وإنما نود أن نبين كيف أن السيرة تقدم نماذج متنوعة من البطولة بأبعادها النفسية. ومما لا شك فيه أن شخصية ذات الهمة التى استطاعت أن تحطم كل قيد فى سبيل تحقيق الذات، أكثر اكتمالا من شخصية عبد الوهاب، وإن بدا الاثنان بطلين لا يناوئهما أحد فى بطولتهما.

السيد البطال:

هو البطل التاريخى الذى استشهد فى الحروب العربية الرومية عام ١٢٢هـ. أما فى السيرة فهو ليس من أرباب السيف وإنما من أرباب الحيل والخداع كما يقول هو عن نفسه: «أنا ما صناعتى الحرب والطعن والضرب وإنما صناعتى فى الحيل والخداع فى حصن أو قلعة». وعلى الرغم من أن أن السيرة استغلت موضوع الخداع والحيل استغلالا خياليا إلى درجة

(١) السيرة: جـ ١٩ ص ٣٤.

كبيرة، بحيث يبدو أن جل هذه الحيل من نتاج خيال الرواه، إلا أننا نرى أنها تستند إلى حد كبير على الواقع. فالأستاذ المؤرخ نورمان بينز يحكى لنا فى كتابه «الامبراطورية البيزنطية» عن الحيل والخداع اللذين كانا يعدان مبدأ مقبولا فى الحروب العربية البيزنطية، ومفضلا على أساليب القوة، فيقول: «كان القواد البيزنطيين أفقر من أن يدفعهم الطموح إلى الإقدام على أعمال الفروسية الكيشوتية (وكيشوت هو بطل القصة الأسبانية الرائعة التى كتبها سرفانتز). والمقصود بالكيوشتية هنا الخيالية التى لا تقوم على تبصر أو حساب. إذ كانت المحافظة على قواهم الصغيرة عمادهم فى كثير من الأشياء، وعلى هذا فقد كان واجب القائد أن يستوثق من الظروف الملائمة للحركات العسكرية الرومانية قبل أن يجازف بالاشتراك فى اشتباك حربى. فالهرب المصطنع والمباغتات والهجمات الليلية والكمائن والمفاوضات التى لا يقصد بها سوى كسب الوقت، كل هذه وغيرها كانت وسائل مقبولة فى الحرب. وكان الجندى الذى يعتمد على القوة فى حيث كان الدهاء كافيا لكسب النصر لا يعد إلا مغفلا»[1].

وقد سبق أن رأينا كيف أن الروم فشلوا، عن طريق استخدام القوة، فى صد حملة مسلمة بن عبد الملك عن القسطنطينية التى دامت سبع سنوات، فى حين نجح ليون فى إبعاد العرب عن المدينة عن طريق تلك الحيلة التى ابتدعها[2]. وليس بعيدا أن يكون البطال أحد أصحاب الحيل فى جيش المسلمين بخاصة، وأنه كان أحد الذين علقت صورهم فى الكنائس

(١) نورمان بينز: الأمبراطورية البيزنطية. ترجمة الدكتور حسين مؤنس ص ١٧٩.
(٢) انظر الجزء الخاص بعلاقة السيرة بالتاريخ.

والأديرة حتى لا تتم على الناس حيله[1]. ولم تنس السيرة أن تذكر ذلك على لسان أحد أبطال الروم إذ يقول عن البطال: «هذا البلاء النازل، هذا الموت العاجل، هذا البلاء الكامل، هذا مفتت الكبود الذى تذل من حيله ومكره الأسود، هذا الثعبان الأغبر، هذا الموت الأحمر، الذى فى جميع الكنائس مصور»[2].

ولا غرو بعد ذلك أن يكون البطال شخصية طريفة فى السيرة. ولا نبالغ إذا قلنا إنه يعد المحرك الأول لحوادثها. فحيله العديدة تمكن القاص من أن ينتقل من موضوع لآخر فى يسر، فضلا عن أن هذه الحيل تضفى على السيرة كثيرا من الطرافة والتشويق. فقد يتنكر فى هيئة راهب متعبد يجيد تلاوة الانجيل. وسرعان ما يلتف حوله الرهبان المحاربون ويكشفون له خطط القتال، فينقلها بدوره إلى جيش بنى كلاب. وقد يدخل بلاد الروم متخفيا فى هيئة طبيب عالم بأسرار الطب. ثم تقوده حرفته إلى قصر الملك الذى يحبه للباقته وطرافة حديثه، ويحكى له عما يساوره من قلق بسبب حرب العرب له. فيرد عليه البطال قائلا: «لا يهمك ذلك الأمر واستعمل الصبر. أنا الليلة أدعو عليهم دعوة وأدعو المسيح يتركهم أشباحا بلا أرواح فتضعف قلوبهم وقوتهم»[3]. حتى إذا شاء الملك أن يحتفل به فيحضر لحم الخنزير المشوى والخمر، يخشى البطال أن ينكشف أمره إذا امتنع عن الطعام والشراب. ولكنه سرعان ما يتخلص من هذا الموقف المحرج باختراع حديث

(١) يروى السعودى فى التنبيه والاشراف أن الروم صوروا فى كنائسهم بعض أبطال المسلمين الذى امتازوا بخفة الحركة. (التنبيه جـ ٨ ص ١٨٣، ط. دى جويه).

(٢) السيرة جـ ٤٥ ص ٣٦.

(٣) السيرة جـ ٢٢ ص ١٦.

ينسبه إلى عيسى عليه السلام ويقول: «أوصيكم ياعبادى المخلصين ألا تأكلوا أطيب المصنوعات من الطعام، فإنها تزيد القلوب قسوة وتميل بالقلب عن الطبائع البشرية»[1].

فإذا حاصر المسلمون مدينة حصينة، ووقفوا عاجزين أمامها، أسرع البطال وتفنن فى اختراع الحيلة؛ فقد حدث أن وقف الجيش الإسلامى عاجزا أمام أسوار عمورية الحصينة. ولما رأى البطال ذلك، أدرك أن الحيلة هنا تغنى عن السيف. وما لبث أن أبصر جماعة قادمة من بعيد تحمل أمتعة على ظهور الحمير. فأسرع وتحدث إليهم باليونانية وعرف منهم أنهم يحملون خمورا إلى الملك. فأخبرهم البطال بأن المدينة محاصرة، وفى وسعه أن يدلهم على مكان آمن يدخلون منه إلى المدينة. ولم تشك الجماعة لحظة واحدة فى أن يكون البطال روميا أصيلا، إذ كان يجيد التحدث باليونانية.. فساروا معه حتى خلا بهم المكان، فأسرع البطال وقتلهم وارتدى زيهم وسار بالأمتعة حتى وقف عند باب من أبواب المدينة. فلما علم منه الحارس أنه يحمل خمور الملك، سمح له بالدخول خلسة. وقد استطاع بذلك أن يعين الجيش العربى من داخل المدينة على هدم سورها والاستيلاء عليها[2].

وهكذا تتنوع حيل البطال فى كل أجزاء السيرة وعلى الرغم من كثرتها فإنها تتميز دائما بالجدة والطرافة.

وقد ترك البطال أثره واضحا فى الملحمة التركية التى سميت باسمه والتى سنتعرض لها شيكا. ولسنا ندرى ما إذا كان البطال من أصل تركى

(١) السيرة جـ ٢٢ ص ١٨.
(٢) السيرة جـ ٥٦ ص ٢٣ وما بعدها.

ومن ثم خلدا الملحمة التركية بطولته، فالسيرة تذكر أنه كان أشقر أزرق العينين. كما أننا لا نستطيع أن نقطع الآن ما إذا كانت الملحمة التركية قد تأثرت بالسيرة العربية. وربما استطعنا أن نتبين هذا فى وضوح عندما نناقش الملحمة التركية.

عقبة السليمى:

وكما تتنبأ الأحلام بميلاد البطل كذلك تتنبأ بميلاد الإنسان الشرير. فقد رأت أم عقبة قبل ولادته حلما أزعجها. وفسر المفسرون لها هذه الرؤيا وقالوا لها: «يأتيك ولد شرانى، يلقى الفتن بين الناس من النساء والرجال، ويكون سفاك الدماء كثير الحيل والزنا، مفسد فى الدين عاصى لرب العالمين، فاحفظى سرك ولا تذيعيه، وإذا رزقتيه فاهجريه»[1]. وبهذا كشفت لنا السيرة عن طبيعة شخصية عقبة منذ بداية الأمر. وقد شاءت السيرة أن تجسد فيه كل مقومات النفاق. فقد نشأ عقبة متفقها فى علوم الدين الإسلامى، وأصبح بذلك قاضيا. وما أحراه بعد ذلك أن يكون أول من يرعى حرمة الدين ويعمل على تقوية دعائمه. ولكننا نجده على العكس من ذلك يعمل على هدم كيانه بأن يكون أول نصير لأعدائه. وقد كان فى وسع عقبة أن يعلن نصرانيته وينضم إلى صفوف الروم، ولكنه رأى أن الحكمة تقتضى منه أن يظل قاضيا مسلما فى الظاهر، ويعمل فى الخفاء على إفشاء خطط المسلمين للروم أولا بأول.

ولذلك فقد تعددت حيل عقبة كما تعددت حيل البطال. فقد يختفى فجأة فى بلاد الروم لينقل إليهم خبرا وينظم معهم خطط القتال. وما يلبث

(١) السيرة جـ ٧ ص ٨.

أن يظهر بعد ذلك فى أحد الجوامع الشهيرة يؤم الناس ويعظهم. فإذا نقل أحد الأبطال المسلمين إلى الخليفة خبر لجوئه إلى بلاد الملك الرومى، تبين للخليفة أنه يؤدى عمله بوصفه قاضيا مسلما فى أحد الجوامع الشهيرة. وبهذا يتشكك الخليفة فى هذا الخبر ولا يجرؤ على إدانة عقبة القاضى الورع كما يبدو له.

وقد يبالغ فى ابتداع الحيلة كما يفعل البطال فيتنكر فى هيئة إنسان آخر حتى يتم له ما يريد.. فقد حدث أن طلب الرشيد من عمرو بن عبيد الله أن يحتفظ بأسرى الروم عنده. وعرف عقبة ذلك وكان يود أن يطلق سراح أسرى الروم. فأوصى إلى عمرو بن عبيد الله ألا يحتفظ بالأسرى عنده لئلا يكيد له أبطال بنى كلاب فيطلقون سراحهم حتى يضعف مركزه لدى الخليفة. ونصحه أن يحتفظ بهم عند شخص مجهول وذكر له اسمه، ولم يشك عمرو بن عبيد الله فى صدق نصيحة عقبة واحتفظ بأسرى الروم لدى هذا الشخص الغريب ويدعى أحمد الرامى. وكان عقبة يعلم تمام العلم أن أحمد الرامى قد عشق امرأة غير زوجته، وأنه يقضى عندها وترا من الليل. وكان يعلم كذلك أن الزوجة كانت مشغولة بهذا الأمر، فكانت تستعين بوسائل السحر حتى يرجع إليها زوجها. وهنا تنكر عقبة فى هيئة ساحر وطرق باب الزوجة، وأخبرها أنه فى وسعه أن يرد إليها زوجها بسحره. فرحبت به الزوجة. وبعد أن أدى عقبة طقوس السحر وطلب منها أن تفتح جميع أقفال البيت «لأن القفل كاسمه»[1] لايساعد على فتح الطريق إلى الحل المرضى. وما لبثت المرأة أن فتحت الأبواب كلها حتى باب المطمورة

(١) السيرة جـ ٢٣ ص ٧٠.

التى أودع فيها أحمد الرامى الأسرى. وهنا غافل عقبة الزوجة وأطلق سراح الأسرى واختفى لتوه.

وبهذا شغل عقبة أبطال بنى كلاب جميعهم والبطال بصفة خاصة، إذ كان البطال متفننا فى كشف حيل عقبة وفى إشهاد الخليفة على جرائمه التى يرتكبها ضد الدين الإسلامى والدولة الإسلامية. وقد ظل الخلفاء يتأرجحون بين الشك واليقين حتى كان عصر المعتصم، الخليفة البطل الذى لم يساوره أدنى شك فى نفاق عقبة.

فشخصية عقبة ـ شأنها شأن شخصية البطال ـ تعد فى الحقيقة المحور الذى تدور حوله كثير من حوادث السيرة. فهو يدبر مؤامراته العديدة، فيتم بعضها على المسلمين، وينكشف أمره فى بعضها الآخر ويقع فى أيدى المسلمين متلبسا بجرائمه. ولم يجرؤ أبطال المسلمين على القضاء عليه حتى يستريحوا منه. وقد شرحت السيرة أسباب ذلك فيقول: «فلما سمع الحكيم ذلك (أى قصة نفاق عقبة) قال: كيف يسلم من أيديكم وقد وقعتم به ألف مرة، وهو على هذه الصفة، فلم تقتلوه وتريحوا أنفسكم منه.. فقال لؤلؤ (وهو أحد رجال عبد الوهاب) لأجل الأمير عبد الوهاب لأنه رأى فى المنام النبى ﷺ ويقول له: أن عقبة هذا يصلب على باب الذهب بالقسطنطينية بعدما يهلك عليه خلق كثير من الروم والعرب. فلما سمع الأمير ذلك أصبح وأعاد المنام على جميع الناس، وأوصى كل من وقع به لا يقتله حتى يصح المنام عن النبى ﷺ لأنه قال عليه السلام: من رآنى فقد رآنى حقا، فإن الشيطان لا يتمثل بى»[1].

(١) السيرة جـ ٢٦ ص ٤٠.

وقد ترك عقبة أثره واضحا فى سيرة الظاهر بيبرس. فهى تحكى عن شخصية مماثلة لشخصية عقبة تماما، إنها تنسبه إلى عقبة. فهى تذكر «إنه كان فى قديم الزمان وسالف العصر والأوان فرقة من العرب بها طائفة بنى سليم وكلهم كانوا مسلمين فتخلف منهم جل يقال له عقبة اللعين بن مصعب. وكان داخله الغرور بوقع الفتن ويخبر بكل الأمور حتى إنه أشرك بالله تعالى ومحمد رسوله ﷺ. وقد تقدمت قصته فى غير هذه السيرة. ثم تولد من نسله غلام ألعن وأضل سبيلا»[1] وقد كان هذا الغلام هو جوان الذى كان يتفنن فى تدبير الشرور للمسلمين تماما كما كان يفعل عقبة. ثم كان على جمال الدين شيحه أن يكشف الستار عن حيل جوان وينقذ بذلك المسلمين، تماما كما كان يفعل البطال.

شخصية الخليفة:

إذا كانت سيرة الأميرة ذات الهمة قد عرضت تاريخ أسرة بنى كلاب فى الفترة ما بين عصر عبد الملك بن مروان والمعتصم بالله، فإن ذلك تطلب منها أن تقف وقفة عند كل خليفة فتصور أهم أحداث عصره السياسية من ناحية وعلاقته بأسرة بنى كلاب من ناحية أخرى.

والخليفة بصفة عامة مهتز الشخصية نتيجة اضطراب عصره فهو لا يستطيع أن يفصل بين الخير والشر فصلا قاطعا، بحيث نراه منصفا للخير معينا له على الدوام. فكل خلفاء الدولة العباسية، إذا استثنينا المعتصم، كانوا يترددون فى إدانة عقبة، إما مجاملة لقبيلة بنى سليم التى ينتمى إليها، أو

(١) سيرة الظاهر بيبرس جـ ١ ص ٥٢ (عبد الحميد حنفى).

خوفا من تزايد نفوذ قبيلة بنى كلاب كما كانوا يتوهمون. ومن ثم كان الخليفة من وجهة نظر السيرة، ضعيف العزيمة والرأى.

والخليفة منشغل بأموره الخاصة أكثر من انشغاله بأمور دولته.

.. فقد انصرف الرشيد إلى حب نورى إلى درجة أن جاهر بالعداء كلا من البطال وعبد الوهاب اللذين تنازعا حبها كذلك. وقد ملك هذا الحب على الرشيد رشده إلى درجة أنه انصرف كلية عن أمور دولته. وقد يبدو أن تلك القصة خيال صرف، ولكن التاريخ يحكى لنا قصة مشابهة لها. فقد أرسل نقفور فوكاس إلى هارون الرشيد يطلب منه المال الذى سبق أن دفعته له الملكة ايرين. ورفض الرشيد أن يدفع المال وقام بحملة على الدولة البيزنطية حطم فيها حصن هرقلة سنة ١٩٠ هـ. واكتفى الرشيد بذلك لأنه ـ كما يقول المسعودى ـ انشغل عن الحرب بحب ابنة أحد البطارقة التى ابتنى لها قلعة هيراقليس[١].

والواقع أن السيرة ركزت كثيرا من صفات الخليفة فى شخصية هارون الرشيد. فالرشيد يقدم دائما للقصاص الشعبى نموذجا للشخصية التى يصيغ حولها كثيرا من الروايات. فمن دلائل انصراف الخليفة عما يجرى ببلاده من حروب داخلية وخارجية، أن الخليفة هارون الرشيد حضر إلى ميدان القتال بأفخر الثياب، وكأنه ذاهب إلى حفل كبير. فلما رآه أبطال بنى كلاب فى هذا البهاء خاطبه أحدهم وقال: «يا أبا راشد هذه الخلعة التى عليك ما تصلح لهذه البرارى». ثم أحضروا له جبه خشنة، فخلع جبته

(١) المسعودى: مروج الذهب جـ ٢ ص ٣٠٥.

الفاخرة ولبس الأخرى وهو مستكين لرغبة المحاربين ثم قال: «ما رأيت قط أثقل من هذه السنة، وأنا أرجو أن تكون العاقبة إلى خير[1].

أما الخليفة المعتصم فكان نموذجا للخليفة البطل الذى يشارك الشعب رغباته وآماله، ولهذا فقد وصفته السيرة بأنه «كان فارسا هماما وبطلا عظيما ضرغاما. وكان فيه من الحمية والدين والغيرة على المسلمين ما لم يكن فى أحد من أجداده»[2] ولهذا فقد تم على يديه فتح القسطنطينية والقضاء على عقبة. أى أنه حقق أملا طالما راود أبطال السيرة وهو القضاء على العدو الخارجى والعدو الخارجى والعدو الداخلى فى آن واحد.

شخصية الراهب:

فى دائرة المعارف الإسلامية مادة «رباط» يتساءل الأستاذ جورج مارسيز عما إذا كان الرهبان الذين كانوا يقيمون فى أديرة حصينة فى منطقة الثغور يقومون بدور إيجابى فى الحروب العربية البيزنطية. وإذا كان جورج مارسيز لم يستطع أن يقطع برأى فى الإجابة عن هذا السؤال، فإن سيرة الأميرة ذات الهمة تجيب عنه بالإيجاب. بل إن جيش الدولة البيزنطية الأول يتمثل فى هؤلاء الرهبان. فالراهب وإن كان قد عزف عن الحياة وسكن الدير، إلا أنه لم ينس أن دفاعه عن دينه جزء من عبادته. ولهذا فإن الأديرة تعد، وفقا للسيرة، قلاعا حصينة مجهزة بكل ما يهدى الرهبان إلى خطر العدو. فمن ذلك ما تذكره السيرة فى وصف إحدى الديارات: «ولما رأى بلىناس ذلك، بنى فى ذلك المكان ديرا عظيما وجعل الدير دائرا بتلك ا

(١) السيرة جـ ٣٦ ص ٦٨.

للقبة أربعة أبواب من النحاس وعمل فى الباب الذى يلى الشرق أسد باسط ذراعيه مفتوح الفم يدور على لولب ورقى إليه الماء من تلك الصخرة إلى أن خرج الماء منه فى بركة تحت القبة الشرقى وعمل فى البركة أنابيب يخرج الماء منها، وغرس من حول ذلك الدير البساتين وكروم تسقى من ذلك الماء. وقد جعل فى الباب الثالث صنما أحكم صفته ورتب حكمته، فمن توجه إلى الدير من العدو دار الصنم ويرجع إلى الجهة التى يأتى العدو منها، ثم تتحرك يديه جميعا فتهتز فيها جلاجل مصنوعة تسمع على بعد من الدير. فإذا فعل الصنم ذلك أخذ أهل الدير أهبتهم وتحضروا لعدوهم. وجعل فى الباب الرابع صنما آخر من النحاس الذى لا يبلى، علوه عشرون ذراعا، وجعل وجهه مما يلى الشرق، وصنع جرسا عظيما معلقا فى يده. فإذا جاءت ساعة من الساعات التى يتعبدون فيها، حرك الصنم جسده، فيتحرك الجرس. فعند ذلك يتأهبون للصلاة»[1].

والراهب من وجهة نظر أبطال المسلمين هارب من الحياة لأنه جبن عن مواجهتها. فقد أشرف عبد الوهاب على «دير عالى البناء، واسع الفضاء، قد ارتفع فى الهوى. فلما وصل الأمير عبد الوهاب إليه أعجبه حسن بنيانه ونزل بقربه وقال لأصحابه: ألا ترون إلى حسن هذا المكان وأقول أن فيه جماعة من الرهبان. ولكن نادوا سكانه لعل يشرف أحد نسأله عن صاحبنا. فنادوا ياراهب الدير أشرف علينا نسألك عن شىء من الأخبار. فما أستتم كلامه حتى أشرف راهب كبير السن عليه ثياب من الصوف. وكان شحوت فقال اسألوا ما تريدوا ولا تشغلونى عن العبادة

فإنى أفزع من عالم الغيب والشهادة. فقال له ملك بن بشير هل بالقرب منك عمارة فقال ما بالقرب منى إلا البحر الأسود وعلى جنبه مدينة يقال لها المعبد عبر عليها المسيح فوجد فيها جبارا من الجبابرة ويقال له سهيل بن شويل فدعاه إلى دين الله تعالى فأبى أن يتبع دعوى المسيح فدعا عليهم فأصبحوا بدعاء المسيح خادمين وفى ديارهم جاثمين، وقد أصبحت تلك المدينة ينوح فيها الغراب واليوم مهدومة الأطلال والرسوم. فقال له الأمير يا راهب أنت فى هذا الدير وحيد؟ فقال يا بنى لأنى كلب عقور كبست نفسى وحبستها فى هذا المكان مخافة أن أعصى الرحمن»[1].

وربما دفعت هذه الحياة القاسية الراهب لأن يرتكب منكرا ثم يحاول أن يتستر عليه. فقد حدث أن أحب الراهب سقراق ابنة الملك كرفناس التى كانت تقيم فى دير مجاور لديره. ثم حاول أن يحيط نفسه بهالة من الألوهية حتى لا يصدق الناس ما يمكن أن يشاع عنه. فكانت هذه الراهبة تحاول أن تعرف بعض أسرار الناس الخفية، ثم تختفى داخل تمثال أجوف فى دير سقراق. حتى إذا اجتمع الناس وقت الصلاة، أدعى سقراق أن الله يوحى إليه بأخبار الناس عن طريق هذا الطير. وتأخذ الراهبة بعد ذلك فى سرد أخبار الناس بخاصة السيئة منها. على أن البطال، الذى كان كثيرا ما يختفى بالأديرة متنكرا، لم يستطع السكوت عن هذه الخرافات من ناحية، ولأنه كان يود من ناحية أخرى أن يطلع الناس على رياء بعض الرهبان. فاقتفى أثر هذا الأمر حتى تمكن من الاختفاء داخل الطير الأجوف. وفوجىء البطال بالراهبة، فكشف أمرها وأمر سقراق للناس جميعا[2].

---

(١) السيرة جـ ١٥ ص ٢٢، ٢٣.

(٢) السيرة جـ ٥٢ ص ٢١ إلى ٢٣.

ولم يكن غريبا أن يصدق الناس هذه الادعاءات. فقد حكى البطال لابنه تعليقا على موضوع سقراق فقال: «إنه كان فى بلاد الهند صنم يكشف للناس عما يجهلونه، فكان يخبرهم بالسارق والقاتل». وحدث أن ارتكب رجل جريمة سرقة وخشى أن يفضحه الصنم. فذهب إلى الصنم وحطم جزءا منه، وهدده بتحطيمه كلية إن هو كشف عن سره. وفى اليوم التالى ذهب المسروق إلى الصنم ليسأله عن السارق. فقال الصنم: «أن ذلك الزمان قد مضى بناسه وقد أتى هذا الزمان بفاسه، فكل من تكلم الحق كسروا رأسه والعاقل فى هذا الزمان من يحفظ قماشه»[1].

وربما كانت هذه الحكاية رمزية تشير إلى أنه لا ينبغى على الناس تصديق هذه الادعاءات. على أن البطال يتبع ذلك بحكاية تعليلية فيقول: «وقيل يا بنى إنه كان فى أرض مصر فى بر الجيزة عند مكان الأهرام شخص وهو من الحجر، وكان يسمى بأن الهول، وكان مثله وجرى له مثله»[2] وهى حكاية تعلل ما أصاب أبا الهول من تحطيم بعض أجزائه، وتستند فى ذلك على موضوع الحكاية الأولى.

ومن الحكايات التى تكشف عن رياء بعض الرهبان حكاية ابنة أحد ملوك الروم التى تدعى بطرنة. وتحكى عنها السيرة وتقول إنه «لما كمل عقلها وهبت نفسه للمسيح، فأخلى لها الرهبان قلاية برسمها. وكان أبوها وأمها يزورانها فى الشهر مرة.. ولم تزل ابنة الملك فى قلايتها لاتنزل إلا يوم الصلاة فى بيعة هذا الدير وهو يوم الأحد وتعود. وكان قد ترهب فى الدير

(١) السيرة جـ ٥٢ ص ٢٣.

(٢) السيرة جـ ٥٢ ص ٢٤.

ابن ملك البرجان وكان اسمه فرسيس بن مطليس وكان أجمل خلق الله تعالى. فمد عينه إلى الجارية فهواها. فلما رأت منه المحبة أحبته أيضا. ولم يزالا كذلك إلى أن وجدا لهما غفلة من أهل الدير، فاجتمعا فعلقت منه. فلما تبين حملها خافت من أهل الدير على نفسها وأيضا من أبيها الملك. فقالت لابن ملك البرجان، هات اعلمنى كيف الحيلة من الخلاص لأنى إن رأوا حملى قتلونى الرهبان فقال لها لا خوف عليك. وكان قد قرأ شيء من الحكمة ومن العزائم.. وأنه ضرب مندل فى الحكمة ثم بخر وعزم ليلة الأحد وأحضر ملوك الجان فى المندل وقال لهم لا يبقى أحد منكم إلا ويمضى إلى كل راهب من الرهبان الذين فى الدير فى نومه ويقول له إن الحوارى قد عبر الليلة على ديركم ورأى حسن عبادتكم فشكر فعلكم، ولم ير أقوى عبادة من بطرنة ابنة الملك. ثم تقول له إنه قال له إنها قديسة زمانها وقد أشار إليها بعامود فى يده فحملت، فعظموا ما أعظم الحوارى. تم صرفهم من المندل واستخرج خاتما بيده لا يظهر لأحد. وكان هذا الخاتم من صنعة الحكيم هرمس. فإذا مر الذى كان فى إصبعه على أى موضوع كان، رفرفت عليه الطيور، وإن مسكه إنسان ألقت الطيور عليها نفسها»[1]. ففعل الجان ما أمروا به، وبذلك ظلت فعلة بطرنة خافية على بقية سكان الدير.

والحق أن الأديرة تركت أثراً كبيراً فى الأدب الشعبى العربى القديم، إلى درجة أنه يمكننا أن نعد السيرة صراعا بين المرابطين المسلمين من ناحية، ورهبان الأديرة من ناحية أخرى. هذا فضلا عن أن الأديرة، نتيجة لتكوينها

(١) السيرة جـ ٣١ ص ٤٣، ٤٤.

المعمارى الغريب، كانت تتيح لأبطال المسلمين فرصا للاختفاء بها والتلصص على الروم. وقد تفنن البطال فى ذلك، إذ كان قادرا بجرأته الغريبة، أن يشاركهم صلواتهم وتلاوتهم للانجيل. ولذلك فقد كان من اليسير عليه أن يندس بينهم، وكأنه واحد منهم يدبر معهم خططا يتوهمون أنها تعمل على هلاك المسلمين.

هذه هى أهم شخصيات السيرة التى رأى القاص الشعبى أنها لازمة لتوضيح هدفها وفكرتها. وعلينا الآن أن نتجه إلى توضيح هذه الفكرة حتى نتبين إلى أى حد يمكننا أن نعدها عملا أدبيا، وليست مجرد أخبار متفرقة من العصر الجاهلى والأموى والعباسى.

ثانيا: السيرة بوصفها عملا أدبيا

من أهم خصائص العمل الأدبى الروائى ـ سواء كان عملا أدبيا طويلا أم قصيرا ـ أنه يرتكز حول فكرة محددة تخدمها كل عناصر هذا العمل: شخصياته وموضوعاته، ومقوماته الفنية الأخرى التى تتصل بطريقة السرد، وبترتيب حوادثه المتفرقة ترتيبا محددا يؤدى إلى الشكل الأدبى المكتمل.

وقد سبق أن عرضنا لشخصيات السيرة البارزة فوجدنا أنها تنقسم إلى شخصيات عربية وأخرى بيزنطية. كما أن الشخصيات العربية تنقسم بدورها إلى شخصيات بعضها يتسم بالحزم وحسن تصريف الأمور والحرص على تحقيق الحياة الكاملة، وبعضها يسعى إلى الفساد سرا لمجرد استمتاعه بتلبية النزعة الشريرة بداخله، والبعض الآخر يتأرجح بين الفساد والصلاح لأنه لا

يرتاح إلى عمل الفساد المطلق، ولكنه لا يتسم بالشجاعة النفسية التى تدفعه إلى تحقيق. فإلى النوع الأول تنتمى ذات الهمة وعبد الوهاب والبطال والخليفة والمعتصم. وإلى النمط الثانى ينتمى عقبة، أما زعماء بنى سليم وبعض الخلفاء فينتمون إلى النوع الثالث.

وليس الغرض من توزيع الشخصيات على هذا النحو هو تنويعها لتسلية السامع، وإنما الغرض من ذلك أولا خدمة فكرة السيرة. وفكرتها تتحدد بهدف جمعى يهم الشعب كله. ولعل هذا ما يميز الأدب الشعبى عن الأدب الذاتى. وقد كان الهدف الأول للشعب فى تلك الحقبة المضطربة من تاريخه هو تحقيق العدالة الاجتماعية التى تمهد له لأن يصنع تاريخه بنفسه ويسهم فى حكم بلاده بدلا من تلك العناصر الدخيلة التى لا يهمها سوى مصلحتها الخاصة. ولا تتحقق العدالة الاجتماعية إلا بواسطة حاكم عادل يضع نصب عينيه مصلحة شعبه أولا وقبل كل شىء. كما أن هـذا لا يتأتى إلا إذا وضع الحاكم يديه على عناصر الضعف وأعلن ثورته عليها.

وقد أبرزت السيرة مشكلات الدولة ممثلة فى عقبة، وفى العدو الخارجى المهدد لكيان الدولة الإسلامية فى تلك الآونة. وقد كان من الممكن أن يكون عقبة شخصية عادية تلعب دور النفاق نفسه، ولكن القاص جعله قاضيا مسلما لأنه شاء أن يصور ما وصل إليه النفاق فى الأمة الإسلامية. فالقاضى المسلم الذى يحكم وفقا للشرائع الإسلامية لابد أن يكون مثالا للعدل والإخلاص والغيرة على دينه، وإلا فالويل للدولة الإسلامية إن كان قضاتها يتصفون بمثل صفات عقبة. وإذا كان النفاق قد بلغ بالدولة الإسلامية إلى حد أن أتصف به أئمة الدين، فهذا معناه أن الدولة قد

وصلت حقا إلى حافة الهاوية، وأنها أصبحت تنتظر البطل الشعبى لكى ينتشلها مما آلت إليه.

ولهذا فقد ظل عقبة يعيث فى البلاد فسادا معتمدا على مناصرة قبيلته له أولا، وعلى ضعف الخلفاء ثانيا. حتى كان عصر المعتصم الذى فهم الأمور ببصيرة نافذة، قرر بمعاونة أبطال الشعب أن يقضى على طرفى الفساد، عقبة من ناحية، والعدو الخارجى من ناحية أخرى.

ثم نلاحظ أن السيرة تؤكد ضرورة القضاء على طرفى الفساد فى وقت واحد، إذ لا جدوى من القضاء على أحدهما دون الآخر. ولهذا فقد أصرت أن يكون صلب عقبة على باب الذهب، أشهر أبواب مدينة القسطنطينية، أى إثر انتصار المسلمين على الروم. وجعلت بذلك نبوءة النبى ﷺ لعبد الوهاب عنصرا أساسيا فى السيرة، بل جعلتها جوهر السيرة الذى يربط أولها بآخرها.. فصورت عقبة يقوم بدور النفاق كما يحلو له فى الفترات التاريخية التى مرت بها الدولة قبل عصر المعتصم، وهى تشير بين الحين والآخر إلى نبوءة محمد عليه السلام التى لابد أن تتحقق يوما ما.

حتى إذا فتحت القسطنطينية بفضل أبطال بنى كلاب وقيادة المعتصم الرشيدة، سيق عقبة ليصلب على باب الذهب، واجتمعت حشود المسلمين لتنظر مصرع النفاق مع مصرع العدو الخارجى. وهنا نادى المعتصم على عقبة يذكره بوعد النبى، وهو فى الوقت نفسه تذكرة للسامع بعقدة السيرة، فقال له: «ياقاضى كيف ترى قول النبى ﷺ للأمير عبد الوهاب حيث وعده بصلبك، هل صح قوله فى الرؤيا أم لا».

وفى ذلك إشارة لانتصار الدين الذى يتمثل فى وعد النبى الحق، وانتصار الحق على النفاق، والحكم الرشيد الذى تؤازره قوى الشعب على الحكم الفاسد الذى تؤازره قوى الرجعية والفساد.

وبهذا نستطيع أن نقول إن سيرة الأميرة ذات الهمة بهدفها هذا، قد ربطت ماضى تاريخ الشعب العربى بحاضره، حينما أبرزت مشكلته الأساسية التى عانى منها ومازال يعانى منها حتى اليوم. فمازال الشعب العربى يعانى من حكام لا يستطيعون ـ خوفا على مصالحهم ـ الجهر بعناصر الفساد وإعلان الحرب عليها. وماتزال الدولة البيزنطية المهددة لكيان الدولة الإسلامية تظهر بصورة أو بأخرى، ثم مازال عقبة يظهر بين الحين والآخر ليقوم بدور النفاق الذى يقدم أكبر عون للدولة المعادية، وإن كان يعمل ـ وهو لا يدرى ـ على هلاكه المحتم.

هذه هى فكرة السيرة الأساسية. وقد حاولت السيرة ـ رغم طولها البالغ ـ أن تبرزها بين الحين والآخر وأن تؤكدها حتى نهايتها. وهى مشكلة جمعية كما رأينا، بمعنى أنها لا تهم فردا بعينه وإنما تهم الشعب جميعه. ولا غرو فقد كان الشعب يجتمع ليستمع إلى مشكلته، ويسعد ببطولة أبطال ثم يسبح بخياله مع القاص حتى ينتهى معه إلى حل مشكلته إلى يعانيها.

وبهذا نستطيع أن نقول إن أولى عناصر هذا العمل وهى شخصياته تخدم دون شك فكرته الأساسية، وبالمثل فإن موضوعاته المتنوعة التى تتوزع بين حياة العرب فى الجزيرة العربية، وحياتهم فى منطقة الثغور، ثم حياة الروم فى هذه المنطقة، قد أسهمت فى توضيح هذه الفكرة. فليس عرض السيرة لحياة قبيلة بنى كلاب فى قلب الجزيرة العربية إلا تمهيدا لعرض حياتهم

فى منطقة الكفاح. وهى بذلك تتيح للسامع لأن يقارن بين حياة شعب منعزل عن الحياة التى يعيشها، ومشغول فى الوقت نفسه بمشكلات عاشها فى الزمن القديم وما زال يعيشها لأنه لا يمتلك غيرها، وبين حياة هذا الشعب وقد تغيرت فى جوهرها. فالصراع بين القبائل المختلفة، بل وأفراد القبيلة الواحدة يشكل الموضوع الرئيسى فى الجزء الأول من السيرة. حقا إن الأبطال يسعون إلى تأكيد وجودهم، ولكنهم يفعلون ذلك فى نطاق لا يتجاوز حياتهم فى قلب الجزيرة العربية. فالبطل يسعى لأن ينتصر على الزعامة الغاشمة على قبيلته، فيحاول أن يتغلب على العقبات التى يضعها عمه أمامه فى سبيل الفوز بابنته على سبيل المثال. فيظل يسعى فى سبيل الحصول على المهر المطلوب، وفى إظهار بطولته على الدوام حتى يفوز بمطلبه ويصبح البطل المرموق فى قبيلته. وقد فعل هذا كل من جندبة والصحصاح. حتى إذا تجاوزت بطولة الصحصاح مصالحه الخاصة إلى المصالح العامة حينما أنقذ ابنة الخليفة من هجوم الأعراب عليها، انتقل بذلك الصحصاح من حياة القبيلة المحدودة، إلى حياة الأمة الإسلامية العريضة، كما تجاوز مصالحه الخاصة إلى مصالح الشعب بأسره. فإذا الصحصاح يشترك فى الحروب العربية البيزنطية بأمر من الخليفة عبد الملك ابن مروان. فيغيب عن قبيلته زمنا ويظهر بعد ذلك ليطلعهم على واجبهم الأكبر. وورثت ذات الهمة عنه النظرة البعيدة النافذة، فقررت أن تهجر الحياة القبلية بمشكلاتها الجزئية المحدودة، لتقوم بواجب أكبر هو واجب الدفاع عن الأمة الإسلامية والدين الإسلامى.

وبهذا تغيرت حياة الأبطال زمانيا ومكانيا. أما الزمان فهو الحياة المعاصرة

التى يعيشونها، وأما المكان فهو منطقة الدفاع عن الأمة الإسلامية التى تتمثل فى منطقة الثغور. ويمكننا بذلك أن نؤكد الوظيفة الأولى للتراث الشعبى. فهى لا تتمثل فى عرض التقاليد والعادات والأفكار الموروثة فحسب، وإنما تتمثل فى عرض القديم والجديد جنبا إلى جنب. فالسيرة تعرض لنا الحياة القديمة بتقاليدها وعادتها، إلى جانب الحياة الحديثة بمفهومها الجديد المتطور. فلم يعد الأبطال، بعد أن أتسع أفقهم الزمانى والمكانى، يشغلون أنفسهم بمشكلات قديمة. وإذا حدث هذا، فإن ذات الهمة التى تتمثل القوة الواعية، سرعان وما تتدخل لكى تدفع قبيلتها إلى أمام، إذ لا سبيل إلى التراجع إلى حياة الجاهلية الأولى. ذلك أن الحياة الجديدة التى تشكل لهم مشكلات اجتماعية وسياسية جديدة، جديرة بأن يعيشوها. وتتمثل هذه المشكلات فى تحقيق العدالة الاجتماعية حتى يتسنى الشعب العربى أن يسهم فى حل مشكلاته ومشكلة بلاده، كما تتمثل فى تغيير الوضع السياسى للدولة عن طريق تأكيد وجودها داخليا بالقضاء على النفاق، وخارجيا بالقضاء على القوى المتربصة بها المهددة لكيانها.

فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى الحديث عن أسلوب السيرة، ومدى نجاحه فى تحقيق وحدتها القصصية، فإننا نلاحظ أن السيرة رغم طولها البالغ، ورغم استغراقها فى حكايات المغامرات والأسفار التى قد تبعد السامع عن غرضها الأساسى، فإنها تحرص كل الحرص على التمركز حول هدفها الأصلى كما أوضحناه. وهى تتبع فى ذلك أسلوب البسط واللم، إن صح هذا التعبير، فهى تبسط فى وصف المعارك الحربية والمغامرات التى تطرح بالأبطال إلى أماكن بعيدة، وتفرق بينهم، مستخدمة فى ذلك كل وسائل التشويق التى تتميز بها حكايات المغامرات، ولكنها تعود بعد ذلك لتجمع

بين أبطالها فى مكان واحد هو ملطية حيث لا يكون لهم حديث سوى عقبة والروم. ومثال ذلك أن عقبة رحل خفية إلى مصر ليشد أزر الثائرين بها ضد الخليفة، حتى يساعد الروم بذلك على تحقيق غرضهم. ولما كانت مهمة البطال الأساسية هى تعطيل عقبة فى تحقيق أغراضه، فإننا نجده مقتفيا أثره دائما أبدا. فلما افتقده هذه المرة أخذ يستقصى أخباره حتى عرف أنه رحل إلى مصر، فرحل وراءه. وهنا تسهب السيرة فى وصف رحلة البطال فى عرض البحر حتى يصل إلى مكان عقبة. فى هذا الوقت كانت ذات الهمة وولدها عبد الوهاب منشغلين بحماية الثغور، وقد عز عليهما غياب البطال فى ذلك الوقت العصيب، بخاصة أن البطال لم يخبرهما بمقصده. أما الخليفة فكان يعيش مع الأبطال بفكره فحسب، إذ كان مشغولا كذلك بإخضاع ثورة داخلية قامت ضده. وهكذا تستطرد السيرة فى وصف تحركات الأبطال كل على حدة مستخدمة فى ذلك عبارتها التقليدية «أما عن» ومصورة كلا منهم منشغلا بمغامراته بعيدا عن غيره، ثم تجعل بعد ذلك المصير موجها لتحركاتهم، فإذا بهم يجتمعون فى عالمهم الصغير وهو ملطية ليتكاتفوا مرة أخرى فى سبيل الهدف الواحد. فالخليفة يجتمع شمله بالأبطال المحاربين فى ملطية، والسيد البطال يحضر إليهم مكبلا عقبة بالأغلال. وعندئذ يستأنف الجميع حروبهم ضد الثائر الداخلى وضد الروم إلى أن تجد معركة أو مغامرات جديدة يأخذ كل نصيبه فيها مرة أخرى.

والسيرة بهذه الطريقة تحقق هدفين. فهى تمتع السامع وتشوقه بحكايات المغامرات وتبعده عن جو القتال الذى ربما سبب له بعض الملل، وهى تتخذ من ذلك فى الوقت نفسه وسيلة للاسترسال فى القصة الأصلية حتى تصل

إلى نهايتها. ولا يسعنا سوى أن نحيل القارىء على قراءة الجزء الخاص بمغامرات البطال وظالم ولد عبد الوهاب فى أسبانيا وشمال افريقيا ومصر، وهو جزء كبير يستغرق صفحات كثيرة من السيرة، حتى ليخيل للقارىء أن السيرة قد ابتعدت بذلك عن جوهرها، فإذا بنا نفاجىء بمقابلة البطال وظالم لعقبة صدفة بينما كان الأخير يبحث عن مركب تقيله إلى القسطنطينية. وفرح عقبة بمقابلتهما ـ وكانا متخفيين ـ وظن أنه حصل على مأربه بعد يأس طويل بخاصة وأنهما أخبراه ـ وقد عرفاه ـ بأنهما سائرين إلى القسطنطينية. فلما ركن عقبة إليهما وأخذ يسب البطال والمسلمين هجم عليه البطال فى المركب وأوثقه كتافا حتى وصل إلى ملطية. ففرحت بها ذات الهمة وعبد الوهاب، بخاصة وأن غيابها قد طال عليهما إلى درجة أنهما يئسا من رجوعهما[1].

كل هذا يجعلنا ننتهى إلى أن القاص كان على علم تام بمهمته. فهو يعى تماما أنه يحكى حكاية مكتملة، وهو يعى فى الوقت نفسه أن مهمته إمتاع السامع بكافة وسائل التشويق حتى لا يجلب له الملل فيكف عن سماع السيرة. والسيرة بصورتها الأخيرة المدونة تبين لنا كيف أنه نجح بوصفه قصاصا وبوصفه راوية.

ثالثا ـ السيرة بوصفها تراثا شعبيا

فإذا اتجهنا إلى بحث السيرة بوصفها تراثا شعبيا، فإننا نجدها تحتوى على خصائص عامة تشترك فيها مع سائر أشكال التعبير الشعبى، وخصائص خاصة بها بوصفها حكاية شعبية تتميز عن سائر أشكال التعبير الشعبى. أما

(١) السيرة: جـ١ ص ٦٠.

الخصائص العامة فتتمثل فى احتوائها على تصورات الشعب ومعتقداته التى ورثها عبر الأجيال، كما تتمثل فى بعض حكاياته القديمة التى يخلق لها مناسبة فيحكيها بدافع الرغبة فى حكايتها والاستماع إليها، ثم فى صور التعبير التى تنبع تلقائيا من اللاشعور الجمعى وفقا لآراء علماء النفس.

أما المعتقدات الشعبية فتتمثل فى الإيمان بالحلم وبقوة الكلمة وبالسحر. والحلم وفقا للتصور الشعبى لا يعكس الحقيقة اليومية، وإنما هو حقيقة فى حد ذاته. فما يراه النائم فى رؤياه لابد من أن يتحقق فى الواقع. وقد سبق أن أشرنا إلى الرؤيا التى رآها الرجل الذى كان ينعى حظه بعد نكبة البرامكة والتى تحققت بحذافيرها. ولولا إيمان الرجل بحقيقة الحلم لما سعى إلى تنفيذ ما أمر به فى رؤياه. وبالمثل تحققت الرؤيا التى رأى عبد الوهاب النبى فيها، وكذلك الرؤيا التى رأتها أم عقبة قبل ولادته. وقد رأى جندبة رؤيا أطلعته على أنه سيسترد مزنة ـ الفرس الذى كلف بإحضاره مهرا لعروسه ـ كما أطلعته على اكتشافه لأخ له يجهله. فلما تحققت الرؤيا كاملة نادى «صح المنام وما خاب»[1].

والحلم فضلا عن أنه يكشف عن الحقيقة المجهولة، يؤدى وظيفة أخرى فى السرد، فهو يساعد على خلق الحركة الجديدة، إذ سرعان ما يتحرك الأبطال بعد أن يرى أحدهم رؤيا تكشف له عن مكان اختفاء عقبة أو عن المكان الذى أسر فيه عزيز لديهم.

والسحر قوة تكمن فى الأشياء، وفى وسع هذه القوة أن تساعد البطل على تحقيق رغباته، وقد تكشف له عن حقيقة يجهلها. فقد دبر الروم مؤامرة لقتل مسلمة بن عبد الملك والصحصاح معا، وذلك بأن أرسلوا

(١) السيرة جـ ١ ص ٦٣.

جاسوسا متنكرا فى هيئة زاهد، استطاع عن طريق زهده أن يقترب إليهما. فلما تم له ذلك وضع السم لهما فى الطعام ثم اختفى. فلما مد مسلمة يده إلى الطعام «وأخذ لقمة وأراد أن يرسلها إلى فمه، إذا بالخاتم الذى فى يده يقطر ماء أصفر قطرات متداولة مثل المطر. فصاح على الملك (أى الصحصاح) وقال له اصبر يا ملك العرب لا تأكل شيئا من الطعام لأنه مسموم.. وكان فى يد الأمير مسلمة خاتم له فص من قرن الحية، وكان أحكمه الحكماء الأوائل ومكتوب عليه أسماء وطلاسم ـ وكان هذا الخاتم لعبد الملك بن مروان أمير المؤمنين. ولما أرسل الأمير مسلمة إلى هذا المكان خاف عليه من هذه الأحكام، فسلمه له وعرفه بمنفعته»[1].

وتكمن القوى السحرية فى الكلمة كما تكمن فى الأشياء. فإذا هتف المسلمون بقوله تعالى: ﴿وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون﴾ انهزم الأعداء على التو. وإذا هتفوا بقوله تعالى: ﴿لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم﴾ اكتسبوا قوة غير عادية وانتصروا.

وقد أصيب حجاف ـ وهو أحد المحاربين الأبطال ـ فى رجله ولم يعد يستطيع الوقوف. «فأدار أبو محمد البطال وجهه إلى قبلة البيت الحرام وصلى ركعتين وبسط يديه بالدعاء ساعة زمنية. ثم دنا من حجاف وقال له: قم بقدرة الله تعالى الذى رد عليك رجليك وخلصك مما كان قد تم عليك. فقام حجاف مثل الأسد الجسور وهلل فى قيامه وتشهد بعلو صوته»[2].

---

(١) السيرة جـ ٥ ص ١.

(٢) السيرة جـ ٥٧ ص ٥٨.

وربما كان الاعتقاد فى قوة الكلمة الدافع الأكبر وراء قول الأشعار البطولية قبل أن يخوض البطل المعركة مباشرة. وإذا كان الشعر فى السيرة ـ وهو كثير ـ ينقسم إلى شعر غنائى يتمثل فى شعر الغزل أو الحنين، وشعر بطولى، فإن غالبية هذا الشعر تنتمى إلى النوع الثانى. فلابد أن يهتف البطل بشعر بطولى قبل الدخول فى المعركة. فهل يرجع ذلك إلى الإيمان بقوة الكلمة حينما يعبر الشاعر عن انفعاله القوى ورغبته فى آن واحد؟ أم أنه يعد امتدادا لثروة الشعر الحماسى عند العرب؟ أم أن البطل يهتف به على سبيل الاستعداد النفسى للدخول فى المعركة، كما نحس فى شعر عبد العزيز العلوى أحد المحاربين الأبطال، حينما هم بمحاربة الروم بعد أن سمع بأسر ابنته. فقد هتف قبل دخوله المعركة:

ألا خبـــروها أننـــى الـــيوم بـاذل
لروحى فى هيجـائهـا بالقـواضب
وأنـى أرد الخيـل أيضـا بصـارمى
وأضرب أعنـاق الليـوث السلاهب
ولـو كان فيمـا بيننـا ألـف بـلدة
لها ألـف سـورهان عنـدى مطالبى
وحـق الـذى حـج الحجيـج لبيتـه
ينـادونه لبيـك مـن كـل جـانب
لأقتحمن الحـــرب حـتى تـرونها
تفيض نجيعاً مثل فيض السحائب[1]

(١) السيرة جـ ٥٦ ص ٤٠.

فإننا نحس أن ضربة السيف ليست سوى امتداد طبيعى للضربات النفسية المتلاحقة التى تعتمل فى نفس المحارب.

وإلى جانب المعتقدات والتصورات الشعبية، هناك الحكايات التى يحفظها الشعب فى ذاكرته لاعتزازه بها، ومن ثم فهو يخلق لها مجالا فى السيرة لكى يحكيها عن عمد. ومن ذلك ما يحكيه الراوى عن الصحصاح فى قوله: «فبينما هو يحدث نفسه بالمسير إلى الدير، إذا هو بغزالة حسنة المنظر مليحة الزى، وهى سائرة تتمخطر وعيناها تتوقدان كأنهما ياقوتتان وحولها جماعة من الغزلان وهم خلفها كأنهم غلمان وهى أمامهم كأنها ملك وسلطان، وعن يمينها وشمالها غزالتان كالأتراك كأنهما لها حجاب، وهى تتحدث معهم. وكان الوقت عند غروب الشمس وقد اصفرت أرجا. فمد الصحصاح إليها أسنانه وأطلق نحوها عنانه فجرت قدامه، وقد لحقتها تلك الغزلان وهى تجد والصحصاح لها فى الطلب. هذا ولم يزل خلفهم حتى غسقت الأرجا تطلب دخول الليل، وقد مدت على الأرض طنبا. وقد دخلت الغزالة إلى غار فى الجبل وتبعتها الغزلان، وقد بقى الصحصاح حائر ولهان وعليها ندمان، فأراد أن يدخل خلفها إلى ذلك المكان فخاف على الجواد يشرد منه فى ظلمة الليل ويبقى حاله بعده بالويل. فرجع طالب الدير وإذا قد اعترضه أسد طويل القامة عريض الهامة أحمر أغبر وقد جلله الوبر وهو يتمخطر على الحجر، وهو أفطس المنخر يطير من عينيه الشرر ويقلب الوادى إذا زعق وزمجر، وله أنياب أحد من النوائب ومخالب أشد من المصائب، صدغه عبوس ضيغم أفطس أدغم، وفيه تسمع منه الرعد إذا همهم، ويبصر من عينيه البرق إذا الليل أظلم واعتكر، كأنه القضاء المبرم والأجل المحتم. هذا وقد وقف الأسد وصاح ثم تقدم عند ذلك الشبلان إلى الصحصاح وهما أن يبتلعانه ويرميانه عن جواده إلى وجه الأرض والبطاح.

فما كان (من الصحصاح إلا أنه جرى نحوهما) أسرع من البرق حتى ضربهما ضربتين قسم بهما الشبلين كل واحد نصفين. فصرخ عند ذلك الأسد وهم بقتله وقد صاح وهجم على الصحصاح، فهجم عليه الصحصاح. عندها صرخ الأسد على الصحصاح صرخة قوية أقلب منها البرية، وقد هجم عليه ولطمه بيديه فأرماه تحته. فبينما هو والأسد فى ضراب وقراع ودفاع، وقد صارت روح الصحصاح فى النزاع، وإذا بجارية حسنة القوام مليحة الابتسام كأنها البدر التمام قد أقبلت وصرخت على الأسد فارتجع عن الصحصاح وخلاه وراح. فنظر الصحصاح إلى وجه تلك الجارية فوجدها مبدعة للناظرين ونزهة للمتأملين. فقدم إليها وقبل يديها وقال لها أنت أنسية أم جنية فقالت له: ايش لك بهذه القضية لا أنسية ولا جنية. أنا فاعلة خير ساكنة بجوار أهل هذا الدير. فقال الصحصاح: فهل أنت ذات خدر أم ذات بعل؟ فعند ذلك قالت له الجارية ما أنت الإطماع يا صحصاح وسبب طمعك لما أن طاردت الغزالة واصطدتها ورأيت الوحيدية وهويتها ونسيت بنت عمك ليلى. وفى هذه النوبة قد طاردت الغزالة الأخرى وسلمت من الأسد سلامة، ولولا أن من الله عليك بى لكانت حلت بك الندامة، وما كان لك كلام إلى يوم القيامة. وبعد هذا كله تسألنى أنا ذات بعل أو ذات خدر وتريد أن تطمع روحك فى زواجى؟. فليت شعرى أى شىء تدل به حتى تخطب البنات والنساء. إن كنت أنت تدل بكثير أموالك، المال عندنا كثير. أو تدل بكرمك فأنت ما أطلقت الغزالة للوحيدية حتى تعلق قلبك بحبها ومحاسنها البهية وأخلاقها المرضية العلية. وإن كنت تدل بشجاعتك وقوة براعتك فهذا وحش قد كسرك وأسرك وطلب قتلك. ولولا إنى جئتك وخلصتك لكان قضى عليك.

وأن كنت تدل بفصاحتك فأنا أفصح منك، وإن كنت أنت مدحت

الأمير مسلمة وأبيه عبد الملك بن مروان، فأنا مدحت النبى ﷺ سيد ولد عدنان وأسلمت على يديه، وأبى الآخر مدح رسول الله ﷺ بقصيدة عجزت عنها فصحاء العرب وقصر عنها أصحاب القول والأدب، وعجز عنها كل لسان وقر لها حسان شاعر النبى المختار بالفخر والفصاحة. فقال لها الصحصاح وقد حار من كلامهما ولحقه الانبهار، وقد غاب عن الوجود من طيب ألفاظها وصار بحبها نشوان، والله إنك لفصيحة اللسان قوية الجنان إلا أن عندك زور وبهتان. فقالت له وما هو الزور والبهتان الذى بان لك منى حتى قلته عنى؟. فقال لها هو قولك أنك مدحت النبى ﷺ يوم بدر وحنين وفى غزوة الأحزاب. وهذا له اليوم ما ينوف من ماية سنة، وإنك أكثر ما يكون عمرك عشرون سنة. وقولك أن أبوكى مدح النبى ﷺ بقصيدة وأنا والله أحفظها كاملة وأحفظ شرحها وهى لملك الجن عقهق الذى آمن على يد النبى ﷺ. فقالت له الحمد لله الذى كان تكذيبك لكلامى تصديقك لنظامى. صدقت والله يا صحصاح أنا بنت عقهق الجنى ملك الجان. وأن بنات الجن ما يتغير حسنها ولا ينقص جمالها»[1].

فهذه حكاية تعد تراثا شعبيا ربما رواه العرب منذ أيام النبى وكانوا يستمعون بحكايته، ولذلك فقد أوجد الراوى له مناسبة لحكايته عن عمد. وربما فسرت هذه الحكاية تفسيرا نفسيا بوصفها تعبيرا عن الأفكار الشهوانية التى طال كبتها حينما كان العربى يرحل وحده للقيام بمغامرات تستغرق وقتا طويلا فى قلب الصحراء.

ومن الحكايات التى تنتمى إلى ثورة القصص الشعبى العربى حكاية

(١) السيرة: جـ ٥ ص ٥٢ إلى ٥٤.

العرافة والكهانة. وقد رأينا كيف أنها استغلت فى حادثة تبرئة ذات الهمة من التهمة التى اتهمها بها ابن عمها الحارث.

ويحكى لنا القلقشندى حكاية شبيهة بحكاية ذات الهمة حدثت لهند ابنة عتبة بن ربيعة فيقول: «من عجيب أخبارهم (أى أخبار العرب الجاهلين) أن هند ابنة عتبة بن ربيعة كانت زوجة الفاكه بن المغيرة المخزومى، وكان له بيت للضيافة يغشاه الناس من غير إذن. فخلا البيت يوما، فاضطجع الفاكه وهند فيه. ثم نهض الفاكه لبعض حاجاته. وأقبل رجل ممن كان يغشى البيت فولجه. فلما رآها ولى هاربا وأبصره الفاكه وأقبل إلى هند فركضها برجله وهى نائمه فانتبهت. فقال من ذا الذى خرج من عندك؟ فقالت: لم أر أحدا وأنت الذى أنيهتنى. فقال لها اذهبى إلى بيت أبيك فأقيمى عنده. وتكلم الناس فيها. فقال له أبوها إنك قد رميت ابنتى بأمر عظيم، فحاكمنى إلى بعض كهان اليمن. فخرجا فى جماعة من قومهما إلى كاهن اليمن ومعها هند ونسوه أخر. فلما شارفوا بلاد الكاهن، قالت هند لأبيها: انكم تأتون بشرا يصيب ويخطىء ولا آمنه أن يسمنى ميسما يكون على سبة، فقال أبوها سأختبره لك. فصفر لفرسه حتى أدنى، فأدخل فى إحليله حبة حنظلة وشد عليها بسير. فلما دخلوا على الكاهن قال له عتبة: أنا قد خبأت لك خبأ أخبرك به فانظر ما هو، فقال ثمرة فى كمرة. فقال: أريد أبين من هذا. فقال: حبه برفى إحليل مهر. فقال له انظر فى أمر هؤلاء النسوة. فجعل يدنو من إحداهن فيضرب بيده على كتفها ويقول انهضى حتى دنا من هند فقال لها: انهضى غير رشحاء ولا زانية ولتلدن ملكا اسمه معاوية. فنهض إليها الفاكه فأخذها بيدها فجذبت يدها من يده وقالت: إليك عنى! فوالله لأحرصن على أن يكون من غيرك. فتزوجها أبو

سفيان بن حرب فولدت له معاوية»[1].

فإذا تجاوزنا المعتقدات الشعبية والأخبار المأثورة التى تأخذ شكل حكايات يستمتع العرب بحكاياتها، إلى ذكر نموذج من التعبير عن اللاشعور الجمعى، فإننا نجده يتمثل فى صور البطل منذ أن يولد حتى يبلغ مرحلة النضج والكمال. وقد سبق أن قدمنا نموذجين لحياة البطل يتمثلان فى حياة جندية وحياة ذات الهمة. فقد ولد جندبة يتيم الأب ثم ماتت أمه بعد ولادته مباشرة وتربى لدى قوم غرباء. فلما عرف حقيقة نسبة، انضم إلى قومه وأصبح البطل المرموق.

وبالمثل فقد تربت ذات الهمة لدى قوم غرباء بعد أن أبعدت عن أبيها وأمها. ثم عرفت فى النهاية حقيقة نسبها فانضمت إلى أهلها وقد اكتملت شخصيتها وأصبحت بطلة السيرة الأولى. ولا ننفرد السيرة بهذين النموذجين، فهناك مذبحون ولد البطال الذى تربى غريبا بعيدا عن أبيه فى بلاد الروم، ثم حضر لقتال المسلمين فتعرفت عليه أمه، فانضم إلى قومه وقد أصبح بطلا مرموقا. وقد سمى مذبحون لأنه كان على وشك أن يذبح لولا أن أنقذه بعض رجال الروم الطيبون. وكذلك بحرون ولد عبد الوهاب من زوجته الرومية التى أسرت فى إحدى المعارك، وولدت ولدها هناك. ولما خافت عليه من الروم وضعته فى صندوق وألقت به فى البحر. فأشفقت عليه أميرة من أميرات الروم وربته وأطلقت عليه اسم بحرون لأنها عثرت عليه فى البحر. ثم تعرف على أبيه بعد ذلك وانضم إلى صفوف المسلمين.

فإذا عرفنا أن حكاية ميلاد البطل على هذا النحو، ترد فى الحكايات

(١) القلقشندى: صبح الأعشى جـ ١ ص ٣٩٨، ٣٩٩ (ط. المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر).

الخرافية والشعبية فى جميع أنحاء العالم، استطعنا أن ننتهى إلى أنها تعبير تلقائى عن اللاشعور الجمعى كما فسره علماء النفس. ومصدر هذا التعبير هو إحساس الفرد بالعقبات التى تستكن فى لا شعوره منذ طفولته حتى يصل إلى مرحلة التفرد والاكتمال. كما أنها تنشأ بدافع النموذج الأصلى فيما سماه يونج، وعرفه بأنه القوى الخيرة التى تستكن فى نفس كل إنسان وتدفعه إلى تحطيم العقبات فى سبيل الوصول إلى الحياة المستقلة الكاملة. فالطفل يولد من أبوين، وما يلبث أن يشعر ـ حينما يكبر ـ بسيطرة الأب عليه، الأمر الذى يدفعه إلى التعلق بأمه. ويقابل هذا فى حكاية ميلاد البطل فى التراث الشعبى، أن الطفل غالبا ما يولد فى حضن أمه بعيدا عن أبيه. كما يقابله كره الأب لهذا الطفل إثر نبوءة تطلعه على خطورة شأنه. حتى إذا ما شب الطفل عن الطوق، اضطر ـ مدفوعا بطبيعة الحياة التى تتميز بالاكتمال والكمال ـ إلى الانفصال عن أمه. ويقابل هذا فى التعبير الشعبى اللاشعورى تسليم الأم ابنها لقوم غرباء ليتربى بينهم خوفا عليه. ثم يتحرك الطفل شيئا فشيئا نحو الحياة المستقلة الكاملة. فإذا به يصبح بطلا مرموقا ويتعرف على أهله مرة وأخرى، إذا لم يعد يخشى سطوتهم، فيدافع عنهم وعن مبدأ الخير بوجه عام[1].

هذه هى أهم العناصر الفولكلورية بالسيرة. ولعلنا نرى بعد ذلك كيف أن التراث الشعبى يقدم القديم والجديد معا. فالقديم يتمثل فى تراث الشعب الذى يقدسه ويحرص على الاحتفاظ به... والجديد يتمثل فى التعبير عن علاقة الفرد الشعبى بالحياة المعاصرة التى يعيشها.

---

(١) انظر الفصل الخاص بميلاد البطل فى كتاب «أشكال التعبير فى الأدب الشعبى» للمؤلفة. ص ١٥٧ ـ ١٦٩ ـ مكتبة غريب (الطبعة الثالثة ١٩٨٩.

وربما كان هذا دافعا لنا لأن نغير منهجنا فى دراسة التراث الشعبى. فلا نعكف على جمع ودراسة ما تبقى من التراث القديم فحسب. وإنما نهتم فضلا عن ذلك بما تضيفه الحياة المتطورة التى يعيشها الشعب إلى هذا التراث من مبادىء وأفكار وتصورات، وصدى هذا فى تعبيره الشعبى.

وبقى علينا أن نشير فى مجال البحث الفولكلورى ـ عن أهم خصائص السيرة بوصفها حكاية شعبية.

لعل أوضح ما يميز الحكاية الشعبية عن الحكاية الخرافية من ناحية الشكل، هو أن الحكاية الشعبية ترتكز على الواقع الذى يعيشه الشعب. وليس معنى هذا أن الحكاية الخرافية لا ترتكز على الواقع الذى نعيشه. وإنما هى ترتكز عليه أولا، ثم ترفضه بعد ذلك بكل ما فيه من قيود زمانية ومكانية، وبكل ما فيه من أسباب تجلب الشقاء للانسان، وتخلق عالما سحريا جميلا يعيش فيه البطل حرا طليقا من كل قيد. أما الحكاية الشعبية فهى لا ترفض هذا الواقع، وإنما تصوره بكل مافيه من قيود وعوائق. ولهذا فإن بطل الحكاية الخرافية لا يصلح أن يكون نموذجا يحتذى به، لأنه بطل خرافى من ناحية، ولأنه يقوم بالمغامرات الخيالية التى لا تتحقق إلا فى عالم الحكاية الخرافية من ناحية أخرى. أما بطل الحكاية الشعبية فهو يصلح لأن يكون نموذجا يحتذى به لأنه يتصل إلى حد كبير بعالمنا الواقعى اتصالا وثيقا. وإذا كانت هناك بعض الحكايات الشعبية التى تصور البطل قادرا على القيام بالمغامرات التى لا تحقق إلا فى عالم الخيال، فليس هذا سوى أثرا من آثار الحكاية الخرافية فى الحكاية الشعبية.

وربما تمكنا من توضيح الفرق بين عالم الحكاية الخرافية وعالم الحكاية

الشعبية من خلال حادثة جزئية فى سيرة الأميرة ذات الهمة. تحكى السيرة أن عبد العزيز العلوى أحد أبطال السيرة ـ فقد والدته. فقعد حزينا تحت أستار الكعبة يفكر فى أمرها وأمره. «فبينما هو ذات ليلة من الليالى غلب عليه الكرى، إذ رأى كأن طائرين أبيضين وأرجلهما حمر، فقعد الواحد عند الركن الأيمن والآخر عند الركن الأيسر. فلما استقر بهما الجلوس قال الواحد للآخر: يا أخى إن هذا الشخص النائم شريف، وقد فقد والدته وهى أعز الخلق عليه. فهل عندك منها علم؟ فقال الطائر الآخر بكلام فصيح مثل كلام الآدميين، اعلم يا أخى أن والدة هذا الشخص الذى خفيت عنه الأخبار هى أسيرة فى بلاد الكفار وقد أنزلوها فى سرداب تحت الأرض وهى تعذب فيه بأنواع العذاب». ثم حدد الطائر المكان الذى أسرت فيه الوالدة. فلما استيقظ عبد العزيز خف لرؤية أمه فى هذا المكان وأنقذها.

فالقاص هنا على وعى بصلة السيرة بالواقع، ومن ثم فقد روى هذه الحادثة بوصفها رؤيا، فاحتفظ بذلك بطابع السيرة الواقعى. وإذا افترضنا أن هناك حكاية خرافية تحكى عن هذه الحادثة، فإنها لا تحكيها بوصفها رؤيا، وإنما بوصفها واقعا يعيشه البطل الخرافى، فهو يفاجىء بظهور الطائرين اللذين يكشفان غمته ويمهدان الطريق لمغامراته.

أما الخاصية الثانية التى تتصل بشكل السيرة بوصفها حكاية شعبية، وربما شاركتها فى ذلك الحكاية الخرافية، فهى أنها تمثل مرحلة من التفكير الشعبى سبقته مراحل أخرى. أما المرحلة الأولى فهى مرحلة التعبير الأسطورى الذى يتمثل بصفة خاصة فى الأساطير التى تحكى عن طقوس الميلاد والنضج والوفاة. فلما هبط الإنسان بفكره من السماء إلى الأرض،

أخذ يمزج بين طقوس البطل الإله والبطل الإنسان، فنشأت عن ذلك حكايات البطل المؤله التى تحتفظ بآثار طقوس الميلاد والنصح والوفاة. أما المرحلة الثالثة فهى التى يصبح فيها الشكل الثانى فلولكلورا، بمعنى أنه يصبح مادة روائية تتوارث ويضاف إليها كثيرا من خيال الشعب ومعتقداته، ثم يصقل هذا الفولكلور ويتبلور فى المرحلة الرابعة حينما يتخذ منه القصاص الشعبى مادة لتأليف الشكل الأدبى المكتمل.

وأما الخاصية الثالثة للسيرة فتتصل بموضوعها. وقد حاول بعض الباحثين أن يدرس الدافع الأصلى وراء نشأة الحكاية الشعبية وبعبارة أخرى حاولوا أن يحددوا موضوعها الأصلى. فكان ميدان بحثهم أقدم الحكايات المشهورة التى رأوها تتمثل فى مجموعات الحكايات الشعبية لمنطقة شمال أوروبا التى تسمى Islendige Saga وقد رأوا أن هذه الحكايات تنقسم إلى ثلاث مجموعات: المجموعة الأولى تحتوى على حكايات عن الشعوب التى هاجرت واستقرت فى البلاد الشمالية، وهذه الحكايات تحكى عن مغامراتهم الواقعية والخيالية، وعن جيرانهم ومعاصريهم، كما تحكى عن أصلهم وعلاقة بعضهم بالبعض الآخر. ولا تتمثل البطولة فى هذه الحكايات فى شعب بأسره، وإنما تتمثل فى فرد بعينه ينتمى بدوره إلى قبيلة أو أسرة معينة. أما أسلوب هذه الحكايات فهو النثر الذى يتخلله الشعر.

أما المجموعة الثانية فتسمى مجموعة حكايات الملوك. ولا يعنى هذا ارتباطها بالمفهوم السياسى العام، فالملك لا يحارب فيها بوصفه ممثلا لمملكة ولكن بوصفه ممثلا لأسرته. ولا تتجاوز الحوادث التى تتناولها المجموعتان القرن الحادى عشر الميلادى.

أما المجموعة الثالثة فهى أقل ارتباطا بالزمان والمكان من المجموعتين الأوليين، كما أنها تتضمن حكايات قبل عصر الاستيطان. ومع ذلك فإن هذه المجموعة لا تختلف عن أختيها فى كونها تحكى عن بطل فرد ينتمى إلى أسرة معينة.

وقد استخلص الباحثون بعد ذلك أن الموضوع الرئيسى فى هذه المجموعات هو تاريخ الأسرة أو القبيلة. ولا يصور هذا التاريخ الخاص بعيدا عن تاريخ الأمة بوصفها كلا، فالبطل إذ يصنع تاريخ أسرته. يصنع فى الوقت نفسه تاريخ أمته.

وتبدأ الحكاية بعرض لتاريخ الأسرة أو القبيلة، فتبدأ بالجد الأكبر ثم تتسلسل بأولاده وأحفاده حتى تصل إلى الجيل الرابع أو الخامس فإذا بالبطولة تتركز وتبلغ قمتها فى فرد من أفرادها هو الذى يحول مجرى تاريخ أسرته أو قبيلته، وبعبارة أخرى يحول مجرى تاريخ شعبه، لأن تاريخ الشعب لا يصنعه سوى أسرته أو قبيلته. ومثل هذا الفرد يكون صاحب مثل سياسية واجتماعية ودينية، فهو بطل محارب يغزو ويخضع الثائر ويفتح البلدان، ثم هو يحرر المظلوم من أسر الظالم، وهو يملك فوق ذلك بناصية الدين فيخلصه من النفاق ومن المحاربين له.

وبهذا تحدد الموضوع الرئيسى فى الحكايات الشعبية الشمالية.

ثم حاول الباحثون بعد ذلك أن يمتدوا بالبحث خطوات عن طريق المقارنة بين الحكايات الشعبية فى البلدان الأخرى، فاهتدوا إلى أن هذا المفهوم يتحقق إلى حد كبير فى ثروة الحكايات الشعبية فى العالم بأسره، بل

أنه يتحقق فى أخلد الأعمال الأدبية الشعبية مثل الالياذة وملحمة نيبلنجن ـ ليد الألمانية وبيولف الانجليزية. فكل منهما يركز حوادثه حول سيرة بطل بوصفه ممثلا لأسرته أو قبيلته وحاملا لأبرز خصائص جنسه[1].

وبالمثل فإن سيرة الأميرة ذات الهمة، وهى نموذج كامل لحكاية البطولة الشعبية، تمجد البطل بوصفه ممثلا لقبيلته وحاملا لأبرز خصائص جنسه. فهى تبدأ بعرض لتاريخ الأسرة مبتدأة بالجد الأكبر وهو الحارث الكلابى. ثم تتسلسل بعد ذلك بحوادثها مشيرة إلى بطولة بعض أفراده الأسرة حتى تصل إلى الجيل الخامس والسادس، فتبرز ذات الهمة وولدها عبد الوهاب بوصفهما قمة بطولة هذه الأسرة، فهما يدافعان عن كيانها ويحاولان تأكيد وجودها فى المجتمع العربى. وهما بعملهما هذا يدفعان الأمة العربية إلى الأمام بعد أن يقضيا مع سائر الأبطال على كل عناصر الضعف التى كانت الدولة تعانى منها.

ولا تنفرد سيرة ذات الهمة بهذا الموضوع، وإنما تتفق معها سائر السير الشعبية العربية. وكما سيتضح لنا هذا فى حكاية عمر النعمان، إحدى قصص ألف ليلة وليلة التى سنتعرض لها وشيكا، بل يتضح فى الملحمة البيزنطية ديجينيس أكريتاس.

ولنا بذلك نكون قد استوفينا بحث السيرة من جوانبها المتعددة، وقبل أن نبدأ الجزء الثانى من البحث وهو الأدب الشعب البيزنطى، نرى أنه لزاما

(١) André Jolles: Einfache Formen, S. 66-70 (Tübingen 1958).

علينا أن نشير إلى بعض القصص الشعبى الآخر الذى نرى بادىء بدء أنه يرتبط بسيرتنا ارتباطا قويا، ونعنى بذلك قصة الملك عمر النعمان وملحمة السيد البطال التركية.

* * *

obeikandl.com

الفصل الرابع

حكاية الملك عمر النعمان

لاحظ بعض الباحثين[1] أن حكاية «الملك عمر النعمان وولديه شراكان وضوء المكان»، إحدى قصص ألف ليلة وليلة تختلف فى جوها وموضوعها عن سائر قصص ألف ليلة وليلة فى عمومها.

فبينما تستمد حكاية عمر النعمان موضوعها من الواقع، حينما تتخذ من الصراع العربى البيزنطى موضوعا لها، نجد الحكايات الأخرى فى عمومها ـ إذا استبعدنا حكاية نور الدين ومريم الزنارية التى تشير إلى العلاقة العربية البيزنطية من بعيد ـ تبتعد كل البعد عن موضوعات الحروب وتصور ما هو أمتع من ذلك من حكايات المغامرات وقصص السحر الخيالى. وبينما يشيع فى حكاية عمر النعمان جو الواقع المعتم، يشيع فى الحكايات الأخرى جو الخيال السحرى المشرق.

---

(١) Rudi Paret: Der Ritter Roman Von Umar An-Numän und seine Stellung zur Sammlung von Tausand und eine Nacht Tübingen 1929.

وقد حدا هذا بالباحثين إلى أن يستنتجوا أن حكاية الملك عمر النعمان غريبة عن حكايات ألف ليلة وليلة ومن المحتمل أنها أضيفت إليها فى عصر متأخر.

وقبل أن نتعرض للعناصر التى تتألف منها حكاية عمر النعمان نقدم تلخيصا موجزا لها.

كان عمر النعمان حاكما فى دمشق قبل خلافة عبد الملك ابن مروان. وكان متزوجا من أربع نساء لم يرزق إلا من إحداهن بولد سماه شراكان. ثم تزوج بجارية رومية تدعى صفية فحملت منه. وخشى شراكان أن تلد الجارية ولدا ينازعه الحكم بعد موت أبيه. فلما حان ميعاد الوضع، خرج شراكان ليصاد متلهيا بعد أن ترك وراءه رسولا يحمل إليه نبأ الولادة. وولدت الجارية بنتا، فأسرع الرسول ليزف إلى شراكان النبأ السار. ولكن صفية ولدت بعد رحيل الرسول ولدا بعد ولادة الابنة. فسمى الملك عمر النعمان البنت نزهة الزمان كما سمى الابن «ضوء المكان».

ثم جاءت وفود افريدون ملك القسطنطينية إلى الملك عمر النعمان تطلب منه العون ضد الملك حردوب ملك قيسارية. أما سبب نشوب الحرب بين الملك أفريدون والملك حردوب، فهو كما شرحه الرسول للملك عمر النعمان، أن أحد حكام العرب كان قد أرسل إلى الملك أفريدون هدية من بينها تميمة هى عبارة عن خرزات ثلاث، ويرجع تاريخها إلى زمن الاسكندر الأكبر. ومن غرائب هذه الخرزات أنه إذا علقت أحداها على

صدر طفل، فإنه يظل معافيا طول حياته ولا يمسسه شر قط. وبينما كان رسول الحاكم العربى فى طريقه إلى أفريدون، طلع عليه رجال حردوب وسلبوه الهدية بما فيها التميمة. وفشلت محاولات الملك أفريدون مع الملك حردوب فى سبيل استرجاع التميمة، ولذلك فقد قرر أن يحاربه حتى يسترد ما سلب منه.

واستشار عمر النعمان قومه فى الأمر، فاتفقوا على محاربة ملك قيسارية، إذ كانت علاقته بالعرب قد ساءت فى هذا الوقت. فجهز الملك جيشا بقيادة ولده شراكان ـ وكان أبوه قد أخفى عنه نبأ ولادة أخيه ـ ووزيره دندان.. وسار الجيش حتى وصل إلى مكان فسيح شاء أن يستريح عنده قبل أن يستأنف سيره إلى بلاد الروم. ثم ترك شراكان جيشه مع وزيره دندان وخرج ليستطلع أحوال العدو. ولما كان مجهدا كل الجهد، نام على ظهر حصانه الذى أخذ يسير به حتى بلغ إلى غابه رحبة يستطع فيها القمر.

واستيقظ شراكان على صوت أنثوى يرن صداه فى أجواء الغابة فأختبأ شراكان بين الأشجار ونظر، فإذا امرأة رومية رائعة الجمال تصارع مثيلاتها من الفتيات، وكانت كلما صرعت إحداهن انطلقت تضحك ضحكة ساخرة. فخرج شراكان من مخبئة وكشف لهن عن نفسه. وإذا به أمام امرأة رائعة الجمال هى البطلة الرومية إبريزة. وفى الحال وقع شراكان أسير حبها كما أنها بادلته الحب. ثم طلبت منه مبارزته اعتزازاً منها بقوتها. ولكن شراكان غلبها، فلم يزدها ذلك سوى إعجابا به. فدعته إلى الدير الذى تسكنه حيث أعدت له صنوف الطعام والشراب. وفوجىء شراكان بأن ابريزة ليست سوى ابنة الملك حردوب الذى جاء لمحاربته. ولم يخف عنها شراكان

الغرض الذى من أجله وصل إلى هذا المكان، وهو محاربة أبيها بأمر من والده الملك عمر النعمان، حينما طلب منه الملك أفريدون العون ضد الملك حردوب. وابتسمت ابريزة ابتسامة ذات مغزى وانطلقت ـ مدفوعة بحبها له ـ لتكشف له عن حقيقة الأمر، وهو أن أباها الملك حردوب لا يقف من الملك أفريدون موقفا معاديا، وإنما هى خديعة من الملكيين يهدفان من ورائها أسر شركان فيتخذه الملك أفريدون دية يحتفظ بها حتى ترد إليه ابنته صفية زوجة الملك عمر النعمان، والتى ولدت له كان مكان ونزهة الزمان. ثم أخذت تقص عليه بعد ذلك قصة وصول صفية إلى بلاد عمر النعمان. فقد كانت صفية تزور إحدى الديارات النائية. وفى أثناء رجوعها عن طريق البحر مع جواريها، طلع عليهم رجال الملك حردوب وأخذهم أسرى وأرسلوهم إلى بلاط حردوب. وقرر حردوب ـ رغبة منه فى استمالة الملك عمر النعمان إليه حتى لا ينشب الحرب ضده ـ أن يرسل صفية الجميلة هدية إليه. ولما أيقن أفريدون أن الملك عمر النعمان لن يرد إليه ابنته، بخاصة بعد أن أصبحت أما لأولاده ـ قرر ألا يطلبها جهرا، وإنما يستعمل فى ذلك الخديعة. ولذلك فقد نصحته ابريزة أن يعود إلى بلاده حتى لا تتم عليه الخديعة. فوافق شراكان على ذلك بعد أن اتفق معها أن ترحل معه إلى بلاده حتى يتم زواجه منها. ووافقت ابريزة ولكنها أخبرته بأنها ستلحق به حتى لا يكتشف أمرها.

ووفت ابريزة بوعدها ووصلت إلى بلاد عمر النعمان قبل وصول شراكان، الذى اشتبك فى أثناء الطريق مع جيش الأعداء ودحره. وقدمت

ابريزة نفسها إلى الملك عمر النعمان بعد أن أطلعته على سبب مجيئها وهو الزواج من شراكان. ولكن الملك عمر النعمان طمع فى الزواج منها، وشاء أن ينفذ هذا الأمر فى سرعة قبل وصول شركان. ولما رفضت ابريزة فى إصرار أن تتم هذا الزواج، دخل بها الملك عمر النعمان خلسة. ولما تبين الأمر لابريزة قررت أن تهرب إلى بلادها مع خادمتها مرجانة دون أن يشغلها موضوع حملها من الملك عمر النعمان. ولكنها لم تتمكن من الهـروب إلا بعد أن استكملت شهور حملها وأشرفت على الوضع. واصطحبت ابريزة معها خادما عربيا يعرف مسالك الطرق ويدعى الغضبان. وفى أثناء الطريق أرسلت ابريزة مرجانة لتقضى لها بعض الأمر. فسولت نفس الغضبان له أن يرتكب إثما مع ابريزة، أفضى بها إلى الموت فى الوقت الذى ولدت ابنها. ولما رجعت مرجانة لم تجد الخادم ووجدت سيدتها وقد أشرفت على الموت. فحملتها هى وابنها إلى قيسارية حيث أفضت ابريزة روحها إلى خالقها. وكانت ابريزة قد أوصت مرجانة أن تعلق خرزة من الخرزات الثلاث ـ وكانت قد سلمت الخرزتين الأخيرتين إلى الملك عمر النعمان ـ فى صدر ابنها الذى أطلق عليه فيما بعد اسم رومزان، وأوصتها بأن تجعله يعلقها طوال حياته.

ووصل شراكان إلى بلاط أبيه قبل هروب ابريزة، واستاء لفعلة أبيه كل الاستياء. وزاد استياؤه حينما رأى أخاه كان مكان، وكان أمره خافيا عنه حتى هذا الحين. عندئذ قرر أن يرحل من بلاط أبيه الذى منحه ولاية دمشق بعيدا عنه. أما ضوء المكان فقد طلب من أبيه أن ينزح للحج مع أخته

نزهة الزمان، وفى أثناء عودتهما من الحج هوجما وشردا ولاقا صنوف العذاب، ولم يعودا إلى قصر أبيهما إلا بعد مشقة كبيرة.

ولم ينس حردوب أن ينتقم من الملك عمر النعمان ما فعله فى ابنته ابريزة. وقرر مرة أخرى أن يستخدم الخدعة بدلا من السيف. فأرسل إليه الجوارى الحسان اللاتى خدعنه وقتلنه. أما الملك أفريدون ملك القسطنطينية قد أعلن الحرب على العرب. وكان ضوء المكان وشراكان قائدا الجيوش العربية. ولما رأت جيوش الروم أن المسلمين سيلحقون بهم الهزيمة أسرعوا وقتلوا شراكان عن طريق الخديعة. وحزن ضوء المكان كل الحزن على مقتل أخيه، ولذلك اقتنع بالنصر الذى كسبه وعقد الصلح مع الروم ورجع إلى بغداد حيث توفى بعد سنين قليلة.

وتولى كان مكان الحكم بعد أبيه ضوء المكان تحت وصاية حاجب أبيه الساسانى، إذ كان ما يزال قاصرا. على أن الحاكم الساسانى ما لبث أن طرده وقبض على مقاليد الأمور.

ولم يجد كان مكان بدا من أن يبرح بغداد فخرج وحيدا يجوب الصحارى والقفار حتى أبصر نهر الفرات فجلس عند شاطئه يتغنى بألمه ويقول:

خرجت وفى أملى عودة ... ولكننى لست أدرى متى
وشردنى أننى لم أجد ... سبيلا لدفع ما قد أتى

ثم توضأ من ماء نهر الفرات ودعا الله أن يعينه على تحقيق آماله، ففى تلك اللحظة شعر بعظم المسئولية الملقاة على كاهله، فقد كان عليه أن

يخلص بلاده من الأعداء المتطفلين عليها وأن يرفع من شأنها ويقضى على عناصر ضعفها.

ثم لحقت بكان مكان زمرة من الجيش العربى لتقف فى صفه، ومن بينها الوزير دندان. فعزم بهذه الفئة أن يحارب الروم أولا، ثم يرجع ليخرج الطاغية الساسانى من بلاده ويعيدها إلى أصحابها. ولكن جيوش الروم كانت من الكثرة بحيث استطاعت أن تهزم جيش كان مكان، وأن تأخذه أسيرا إلى بلاط الملك الرومى رومزان الذى كان يحكم فى ذلك الوقت. وقرر رومزان أن يقتل كان مكان بسيفه على رؤوس الأشهاد. فلما مثل أمامه كان مكان وأمر رومزان السياف أن يهوى عليه بسيفه، أسرعت مرجانة وأمرته ألا يفعل هذا إذ أن كان مكان ليس سوى ابن أخيه ضوء المكان. فأمر رومزان السياف فى الحال أن يضع السيف جانبا حتى يستمع إلى تلك القصة الغريبة. وهنا انبرت مرجانة تشرح له قصة نسبه من أبيه الملك عمر النعمان وأمه ابريزة، وكيف أنها حملته إلى بلاد الروم بعد أن توفيت فى أثناء الطريق وهى تضعه. ثم طلبت منه أن ينظر إلى الخرزة المعلقة فى صدره وأن يقارنها بالخرزة المعلقة بصدر كل مكان. فلما فعل وجدهما متشابهتين كل التشابه. عندئذ تأكد رومزان من حقيقة نسبه وعانق ابن أخيه وأعلن إسلامه على رؤوس الأشهاد. ثم حشد لكان مكان جيشا كبيرا وأرسله معه إلى بغداد حيث فاجئوا الحاكم الساسانى وقهروه واستردوا بلادهم.

وهكذا ائتلفت الدولة الرومية مع البلاد الإسلامية تحت حكم المسلمين، فأصبح كان مكان يحكم فى بغداد ورومزان فى القسطنطينية.

هذه قصة عمر النعمان التى تتخذ من حرب العرب مع الروم موضوعا لها. وقد أراد القصاص الشعبى أن يمزج هذه الحكاية الشعبية بجو السحر والخرافة حتى تتلاءم مع جو ألف ليلة وليلة، فأدخل عليها بعض الحكايات البعيدة عن موضوعها. وقد وجد لذلك مناسبة طيبة، وذلك حينما أراد ضوء المكان أن يسرى عن نفسه بعد مقتل أخيه شراكان فطلب من وزيره دندان أن يسلبه ببعض الأسمار. فلما هدأت نفسه قرر أن يستأنف الحرب مع الروم.

وقبل أن نتعرض إلى علاقة حكاية عمر النعمان بسيرة الأميرة ذات الهمة، نشير إلى أهم الأبحاث التى نشأت بصدد هذه الحكاية.

فقد بحث الأستاذ المستشرق الدكتور باريت هذه الحكاية بوصفها حكاية مقحمة على ألف ليلة وليلة من ناحية كما بحث من ناحية أخرى العناصر المجتمعة التى جمع بينها القاص الشعبى وألف منها حكاية مكتملة. ويهمنا الجزء الثانى من البحث لأنه سيسلمنا إلى العلاقة بينها وبين سيرة الأميرة ذات الهمة.

يرى الأستاذ باريت أنه من الصعوبة بمكان أن نكشف عن الحوادث التاريخية المحددة التى ربما كانت دافعا على تأليف هذه الحكاية. حقا أن مخطوط برلين يذكر اسم الملك لاوى بدلا من أفريدون، الأمر الذى حدا بالدكتور باريت إلى أن يفترض أن لاوى هذا ربما كان تحريفا لاسم الامبراطور البيزنطى ليو الثالث الايسورى الذى صد هجمات العرب على القسطنطينية ٧١٧/ ١٨م. إلا أن هذه الإشارة التاريخية ـ إن صحت ـ لاتعد ـ من وجهة نظره ـ دافعا على تأليف الحكاية.

أما ذكر قيسارية وملكها حردوب، فيشير من وجهة نظر الباحث إلى الهجوم الذى قام به مسلمة بن عبد الملك على قيسارية عام ٢٦/٧٢٥م. على أن اختيار القاص الشعبى العاصمة بغداد بدلا من دمشق، يدل على القاص شاء أن يحدد زمنا للحكاية وهو العصر العباسى. وأما اسم الملك عمر ابن النعمان فربما أشار إلى عمرو بن النعمان أحد ملوك قضاعة الذين نزحوا إلى الشام وحالفوا الروم.

وكما جمعت حكاية الملك عمر النعمان بين هذه العناصر التاريخية المتنوعة، فقد تأثرت كذلك بما كان يروى من حكايات شعبية عربية وغير عربية. فأفريدون شخصية بارزة فى الشاهنامة، كما أن قصة ابريزة مع خادمها الغضبان تشبه تماما حكاية الرباب وخادمها سلام فى سيرة الأميرة ذات الهمة.

هذه الأصداء التاريخية والمؤثرات القصصية المختلفة، اجتمعت لا لتؤلف عملا قصصيا يرتكز على التاريخ كما هو الحال فى سيرة الأميرة ذات الهمة، وإنما ليتألف منه ـ كما سنشير إلى ذلك ـ عملا أدبيا رمزيا أساسه الصراع العربى الرومى[١].

هذه هى خلاصة دراسة الأستاذ باريت لهذه الحكاية. وهناك بحث آخر يهدف إلى عقد مقارنة بينها وبين هذه الحكاية وإحدى الحكايات الشعبية

(١) Rudi Raret: Der Ritter Roman Von Omar An-Numan; Tubingen 1927 S.21.

Rudi Paret: Die Geschichte des Islams im Spiegel der arabischen Volksliteratur (Philosophie und, Geschichte B. 13,1927).S. 15.

البيزنطية، ولكننا نود أن نؤجل عرض خلاصة هذا البحث الأخير إلى الفصل الخاص بالمقارنات.

وقد كانت لفتة الدكتور باريت إلى العلاقة بين حكاية عمر النعمان وسيرة الأميرة ذات الهمة، تلك التى تتمثل فى حكاية ابريزة والغضبان من ناحية، والرباب وسلام من ناحية أخرى، دافعا لنا نبحث عن وجوه التشابه بين سيرة الأميرة ذات الهمة.

ويمكننا أن نلخص وجوه التشابه بين سيرة الأميرة ذات الهمة وحكاية عمر النعمان فيما يلى:

أولا: ترتكز حكاية عمر النعمان على موضوع الحرب بين العرب والروم، كما هو الحال فى سيرة الأميرة ذات الهمة. كما أنها تميز بين الملك حردوب ملك قيسارية وهو ملك الروم فى مكان آخر، وبين أفريدون ملك القسطنطينية. كما تميز بينهما وبين الافرنج الذين حاربهم شراكان فى أثناء رجوعه إلى بغداد بعد لقائه مع ابريزة. وبالمثل فإن سيرة الأميرة ذات الهمة كثيرا ما تشير إلى ملوك مستقلين عن الدولة البيزنطية ويحكمون فى قلاع حصينة ويحاربون امبراطور القسطنطينية. وكل هذا يشير إلى ظروف سياسية واحدة تعيشها الامبراطورية البيزنطية. ولا يسعنا سوى أن نحيل القارىء على خريطة ابن حوقل فى كتابه المسالك والمماليك التى توضح المناطق المستقلة عن الدولة الرومانية الشرقية.

ثانيا: تتفق حكاية عمر النعمان مع سيرة الأميرة ذات الهمة فى هدفها

كل الاتفاق، فهى ترمى مثلها إلى استرداد العنصر العربى لحقوقه ومكانته عن طريق إخضاع العناصر الدخيلة عليهم فى الداخل، والانتصار على العدو الخارجى فى الخارج. وقد حققت حكاية عمر النعمان الهدفين تماما كما تحققا فى سيرة الأميرة ذات الهمة.

ثالثا: مجدت سيرة الأميرة ذات الهمة أسرة بنى كلاب التى تمثل العنصر العربى الأصلى، وبالمثل مجدت حكاية النعمان أسرة الملك عمر النعمان، ولعلها رمز للأسرة العربية بأسرها. والحكايتان بهذه الصورة تؤديان الرأى السابق الذى أشرنا إليه وهو أن الحكاية الشعبية الأصلية نشأت لتمجد الأسرة أو القبيلة بوصفهما صانعتين لتاريخ الأمة. وقد تسلسلت كلتا الحكايتين بتاريخ القبيلة والأسرة حتى وصلت إلى قمة البطولة التى تمثلت فى الجيل الرابع والخامس من سلسلة نسبها.

رابعا: تتفق حكاية عمر النعمان مع سيرة الأميرة ذات الهمة فى كثير من حوادثها الفرعية، فقد اعترض حوادث الحكايتين لغز ظل سره مكتوما حتى انكشف أمره. وقد كان هذا التكشف فاتحة النصر فى سيرة الأميرة ذات الهمة وخاتمته فى حكاية عمر النعمان.

ففى سيرة الأميرة ذات الهمة، هربت الرباب زوجة الحارث الكلابى بعد وفاة زوجها خوفا من أعدائه. وقد اصطحبت معها خادمها سلام ليكون عونا لها فى الطريق إذا ما وافاها الوضع، إذ كانت على وشك ولادة طفلها. ولكن الخادم ارتكب معها إثماً أدى بها إلى ولادة طفلها ثم تركها وهرب. وساءت حالة الأم حتى أشرفت على الموت ولكنها أسرعت وعلقت بصدر طفلها تميمة تجلب له الخير، فكان أهل الحى يتبركون بها «فيضعونها على

المصروع فيفيق وعلى الحامل فتضع وعلى المريض فيشفى لوقته». فلما وقع الخلاف بين دارم وجندبة، وأراد جندبة أن يترك بيت دارم، طلب الأخير التميمة لأنه لا غنى له عنها. فلما هم جندبة بانتزاع التميمة فتحت وكشفت له عن سطور مكتوبة. وإذا به يقرأ نسبه وتاريخ حياته. فهم بالرجوع إلى قومه وكان قدومه فاتحة نصر لهم.

وقد تكررت مأساة الرباب بعينها فى حكاية ابريزة مع خادمها الغضبان كما سبق أن شرحناها. وقد كانت الخرزتان المتشابهتان المعلقتان بصدر كل من رومزان وكان مكان الوسيلة الوحيدة التى تأكد رومزان عن طريقها من صدق قول الخادمة مرجانة. وقد كانت ابريزة قد سلمت إلى الملك عمر النعمان ثلاث خرزات إثر وصولها إلى بغداد بوصفها تميمة ذات قيمة. فأعطى أحداها إلى شراكان والثانية لضوء المكان الذى سلمها بدوره إلى ابنه كان مكان. وأما الثالثة فقد احتفظت بها نزهة الزمان. فلما رمى شراكان بخرزته فى وجه أبيه، تناولتها ابريزة واحتفظت بها لنفسها.

وإلى جانب هذه الحادثة الرئيسية، هناك بعض الحوادث الفرعية التى تتشابه فى كل من الحكايتين، كأن تتنكر شواهى ذات الدواهى فى هيئة زاهد متعبد، وتغلق نفسها فى صندوق يحمله بعض رجالها إلى بلاد المسلمين، ويدعون أنهم عثروا على هذا الزاهد تعذبه جموع الروم فأخفوه فى صندوق وهربوا به. وقد نجحت ذات الدواهى بهذه الوسيلة فى قتل شراكان. وقد تكررت هذه الحكاية بحذافيرها فى سيرة الأميرة ذات الهمة. وقد نجح الزاهد المتنكر فى وضع السم فى طعام مسلمة والصحصاح. وكادت تتم عليهم الخدعة لولا الخاتم السحرى الذى كشف لهم عنها.

وكأن يولد ولد لبطل مسلم عربى فى بلاد الروم ويظل أمره خافيا عن أبيه مدة طويلة، يشب فى أثنائها فى حضن النصرانية، حتى ينكشف الأمر للابن والأب معا، فيعلن الابن إسلامه وينضم إلى قومه. حدث هذا مع بحرون ولد البطال ومذبحون ولد عبد الوهاب، كما حدث مع رومزان فى حكاية عمر النعمان.

هذه هى وجوه التشابه بين حكاية عمر النعمان وسيرة الأميرة ذات الهمة. فهل يمكن أن يدفعنا هذا إلى افتراض تأثير إحدى الحكايتين فى الأخرى؟

ربما دفعنا الأساس التاريخى الواقعى الذى اعتمدت عليه سيرة الأميرة ذات الهمة إلى أن نفترض أن سيرة الأميرة ذات الهمة تعد الأصل، حيث أنها صورت الواقع التاريخى ملونا بخيال الشعب. على أن هذا لا يعنى أن حكاية عمر النعمان قد نشأت متأثرة بسيرة الأميرة ذات الهمة. فمن المحتمل أن الحكايتين نشأتا منفصلتين فى ظروف سياسية وفكرية واحدة، الأمر الذى دعا إلى تشابه الحكايتين حتى تفصيلاتهما.

ذات الهمة ، ومغامرات السيد البطال، التركية

لم تعش مغامرات السيد البطال فى سيرة الأميرة ذات الهمة وحدها، وإنما عاشت فى الحكاية التركية التى اتخذت منها عنواناً لها[1].

وكما يبدو من عنوان الحكاية، أنها اهتمت بمغامرات السيد البطال بصفة خاصة. أما الأساس التاريخى الذى ارتكزت عليه سيرة الأميرة ذات

(١) Hermann Ethé: Die Fahrten des Sajjed el Battal (Leipzg, 1871).

الهمة، فقد أغفلته الحكاية التركية. وربما حدث هذا نتيجة جهل القاص، أو بقصد الإغفال المعتمد. ويؤكد لنا الخليط المتنوع من الأسماء التى ترد فى الحكاية التركية أن القاص كان يستمع إلى صنوف مختلفة من الحكايات الشعبية واقتبس منها بعض الأسماء التاريخية المشهورة وأدخلها فى حكايته. فمن قياصرة الروم يظهر هرقل وقسطنطين وهما البطلان الروميان اللذان ظهرا فى الحكايات الشعبية حول معركة تبوك. كما أنها حددت زمن حوادثها ابتداء من عصر الخليفة عبد الملك بن مروان حتى عصر الواثق بالله، وهو الزمن بعينه الذى حصرت فيه سيرة الأميرة ذات الهمة حوادثها. أما حاكم ملطية فيسمى عمر النعمان كما تسمى ابنته صفية، وكلا الأسمين أشارت إليهما حكاية عمر النعمان السالفة. وبالمثل فإن وزير قيصر الروم يدعى اكريتاس. وأكريتاس هو بل الملحمة البيزنطية التى سنخصها بالدراسة التالية لذلك.

كل هذا يدفعنا إلى القول بأن حكاية «أسفار السيد البطال» التركية تعد المصب الذى استقبل صنوف الحكاية الشعبية التى نشأت حول الحروب العربيةالبيزنطية.

أما عن العلاقة بين سيرة الأميرة ذات الهمة وبين الحكاية التركية، فإن أول ما يلفت النظر، هو اشتراكهما فى تمجيد بطل تاريخى هو السيد البطال. ولكن بينما تمجد الحكاية التركية هذا البطل وحده، نجد أن السيرة العربية تمجده مع أبطالها الآخرين. فالسيد البطال فى الحكاية التركية هو البطل الفريد. وإذا كانت قد ذكرت عبد الوهاب، فهى لم تذكره إلا باعتباره وليا فحسب. ولما كانت الحكاية التركية غير حريصة على الارتكاز

المباشر على التاريخ مخالفة فى ذلك سيرة الأميرة ذات الهمة، فمن الطبيعى أن يختفى السرد التاريخى منها. ومن ثم فهم تختلف أساسا فى بدايتها مع سيرة الأميرة ذات الهمة. فقد بشر النبى فى الحكاية التركية ـ عن طريق الوحى بظهور بطل فى ملطية يسمى جعفرا. كما أطلعه الوحى أن هذا البطل سيعمل على نصرة الإسلام فى البلاد المسيحية. وكان عبد الوهاب يشهد نزول الوحى على محمد عليه السلام. فلما أخبره النبى ﷺ بما نزل به الوحى تمنى عبد الوهاب أن يعيش حتى زمن هذا البطل. وحينئذ ظهر الوحى للنبى مرة أخرى وأخبره بأن عبد الوهاب سيشهد بطولة البطل جعفر[1].

وظهر جعفر بعد ذلك، وبرز بوصفه بطلا مدافعا عن الإسلام والأمة الإسلامية ضد الروم ودولتهم النصرانية. وقد سمى فيما بعد باسم البطال تأكيدالبطولته[2].

ولم تجمع الحكاية التركية بين البطال وعبد الوهاب فحسب كما هو الحال فى السيرة، وإنما أضافت إليهما الشخصية المكملة لحوادثها وهى شخصية عقبة. فهى تقدم شخصيته فتقول: «وكان عقبة قاضيا فى بغداد، ويفوز بالمكانة الأسمى لدى الخليفة، هذا مع أنه كان كافراً». ثم تأخذ الحكاية بعد ذلك فى سرد مغامرات عقبة والبطال. تماما كما فى سيرة الأميرة ذات الهمة.

---

(١) Ibid, Band I, S. 56.

(٢) صفة البطال فى سيرة الأميرة ذات الهمة معناها غير الصالح، وذلك إشارة إلى حياة البطل الأولى حينما كان جبانا غير صالح للقتال. أما فى الحكاية التركية فهى صيغة مبالغة من البطل. على أن هذه الصيغة ـ وفقا للمعاجم العربية، تعد اشتقاقا من البطالة لا من البطولة.

ولا تتمثل وجوه الشبه بين السيرة العربية والحكاية التركية إلى هذا الحد فحسب، وإنما تتعداه إلى بعض التفصيلات الدقيقة التى لا يمكن أن تكون قد ظهرت اعتباطا فى الحكايتين. ومثال ذلك الرؤيا التى رآها عبد العزيز العلوى فى سيرة الأميرة ذات الهمة حينما اختفت أمه. فقد رأى «كأن طائرين أبيضين وأرجلهما حمر. فقعد الواحد عند الركن الأيمن والآخر عند الركن الأيسر. فلما استقر بهما الجلوس قال الواحد للآخر: يا أخى إن هذا الشخص النائم شريف وقد فقد والدته وهى أعز الخلق عليه. فهل عندك منها علم؟ فقال الطائر الآخر بكلام فصيح مثل كلام الآدميين: أعلم يا أخى أن والدة هذا الشخص الذى خفيت عنه أخبارها، هى أسيرة فى بلاد الكفار وقد أنزلوها فى سرداب تحت الأرض وهى تتعذب فيه بأنواع العذاب».

هذه الرؤيا بعينها رأتها زوجة عمر النعمان فى الحكاية التركية حينما اختفت ابنتها صفية. وقد أجاب أحد الطائرين الآخر بأنها تختفى بالقرب من البحار السبع.

وهكذا نرى أن العلاقة قوية للغاية بين السيرة العربية والحكاية التركية، الأمر الذى يدفعنا لأن نؤكد ـ فى هذا المجال ـ تأثير إحدى الحكايتين على الأخرى، فالحكاية التركية تكاد تكون رواية أخرى للسيرة العربية. ولكن لما كان القاص التركى بعيدا بعواطفه عن التاريخ القبلى الذى يسيطر على سيرة الأميرة ذات الهمة، فقد أهمل القاص ذكره واكتفى بالامتداد بنسب البطال إلى النبى عليه السلام عن طريق على بن أبى طالب.

وإذا كان لنا أن نرجح أيا من الحكايتين أثرت فى الأخرى، فإننا نرى أن

سيرة الأميرة ذات الهمة قد تركت أثرها فى حكاية «أسفار السيد البطال» التركية. فقد نبعت سيرة الأميرة ذات الهمة من التاريخ مباشرة، أى أنها تعد صدى مباشرا للواقع السياسى والاجتماعى الذى عاشه الشعب العربى فى فترة من فترات تاريخه.

* * *

obeikandl.com